



الروائع المائة

— ١ —

ايشندورف

من حياة حائر بائر

ترجمة

عبد الرحمن بدوي

الثمن ٢٠ صـ




الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ عدلى باشا بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

القاهرة

الرّوائع المِائة

— ١ —

أيشـــندورف

من حياة حائر بائر

ترجمة

عبد الرحمن بدوى

الناشر

مكتبة النهضة المصرية ، ٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

١٩٤٤

العنوان الأصلي : J. von Eichendorff : **Aus dem Leben eines Taugenichts**

ظهر للمرة الأولى : ١٨٢٦

استهلال

لن نستطيع النفوذ إلى أسرار الروح الأوربية حقاً إلا إذا وقفنا مباشرة على ما أبدعته هذه الروح من آثار فى مختلف مظاهر نشاطها الروحى . لأن العرض ، مهما يَبْلغْ من الدقة فى التحليل ، والعمق فى اكتناه الأفكار ، والسعة فى أفق المقارنة ، لا يمكن مطلقاً أن يُغنى عن الاطلاع المباشر على الأصول الأولى التى يقوم هو عليها . إنما الاتصال المباشر الحىّ هو الكفيل دائماً بالتأثير المُلهِم ، والخصب المهتز الدافع إلى الخلق والإبداع . إذ النفوس فى تأثرها بما يأتى إليها من الخارج تتفاوت أبعد تفاوت؛ كما أن الآثار الروحية لا قيمة لها حقاً إلا وَفقاً لما لها من قدرة على أن تنتج آثاراً لا تحصى ، فيها من التنوع والتناقض بقدر ما فى الآثار من قوة إلهام . لهذا كان لكل نفس أن نفهمها كما تهوى ، تبعاً لمقتضيات ذاتها الباطنة ؛ وأن تسلك فى تأويلها من السبل ما تراه محققاً على النحو الأوفى لما تنشده منها من غاية . وما العرض الذى يقوم به الناقد إلا صورة شخصية انعكست فى نفسه عن الأثر الروحى الذى تمثّله فى ذاته وفقاً لطبيعته الخاصة . وقيمة الأثر فى أنه يستطيع أن يعكس أكبر قدر من الصورة الخاصة فى نفوس مَنْ يتأملوه ، وفى أن يكون التفاوت فيما بين هذه الصور شاسعاً يصل أحياناً حد التناقض الخالص . أما ما يسمونه

بالعرض « الحقيق » أو « الموضوعى » أو « العلمى » — فى استعمال آثم لهذا اللفظ الكريم — فلا وجود له إلا فى أذهان السطحيين الأغرار .

لهذا كله ، كان علينا أن نخرج مجموعة أخرى موازية لمجموعة « خلاصة الفكر الأوربى » ، نحاول فيها أن نقدم فى لغة عربية أروع ما أبدعته الروح الأوربية فى مرافق حياتها الروحية الرئيسية . وفى اختيارنا لهذه « الروائع » ، التى حددناها بالعدد « مائة » ، حدانا خصوصاً ما كان لها من أثر فى تكويننا الروحى ، وما شعرنا به فيها من قدرة هائلة على إثارة التفكير ، وإثراء الشعور ، وإهابة بالجانب الإلٰهى فى الإنسان ؛ كما حدانا أيضاً ما كان لها من خطير الأثر فى تطور أوربا الروحى ، وخلق تيارات فكرية جديدة ، وإشاعة قيم خالقة لم تكن معروفة من قبل . وبإيجاز ، راعينا فى اصطفائها أن تكون ممثّلة لأعلى ما بلغته الروح الأوربية من سموّ ، وأن تكون كفيلة إلى الحد الأقصى بإثراء المضمون الروحى للإنسان . لأن الغاية الأولى منها أن تذيع ، فى أبناء هذا الجيل ، ما من الثقافة الأوربية قادر على الدفع به إلى خلق روح جديدة ، وإبداع سُلّم من القيم من شأنه أن يهيئ له إيجاد حضارة سامية وتكوين إنسانية عليا .

فإلى المؤمنين بالروح الجديدة لحضارة جديدة ممن دعوناهم فأجابوا : لبّيك ، لبّيك ! نقدم هذه « الروائع المائة » ؟

يناير سنة ١٩٤٤ عبد الرحمن بدوى

تصدير عام

« أتذكر القصر الجاثم فوق الأعالى الساكنة ؟ إن البوق ليصدح هناك وكأنه يناديك ؛ والتَّيْس الجبلى يرعى العشب فى الوادى ؛ والغابة تطن وتَـزِمّ من الأعماق . — ألا هدوءاً ، أوّاه ! لا تُنبّـه أطياف الأمانى الوَسْنى ! لـكأنْ قد رقد هناك حنينٌ ليس لوصفه من سبيل .

« وهل تعرف البستان ؟ — حينما يأتى الربيع ، تغدو هناك الغادة فى المخارف البليلة ، هادئةً خلال الوحشة ، وتُنبّـه الجدول الرقيق من الشدو الساحر المنطوى فيه ، وكأن الأزهار تشدو والأشجار ، تشدو حواليه متغنية بالعهد البالى الجميل .

« وأنت أيتها الذُّرى ، وأنت أيتها الينابيع ، ألا فلتهمسى برنينك الفتّـان ! وأينما نفذتَ تحدوك شهوةٌ وحشية ، فلن تجد سكوناً فى أى مكان ، بل يبلغ آذانك غناء سِرّى ريان . — أوّاه ! إن هذا السحر الذى يختلبنا فى أحابيله ، لن نفرّ منه ، لا أنا ولا أنتِ ! » .

هكذا كتب أيشـندورف إلى أخيه يصف له مغنى طفولته الحالمة فى قصر لوبوڤتس العريق النبالة ، الراقد حالماً تغذوه نبرات الغابات القانتاتِ على سفوح الجبال ومهاوى الأوْداء ، هناك فى مدينة لوبوڤتس فى سيليزيا العليا ، حيث ولد يوسف فرايهر فون

أيشندروف فى العاشر من شهر مارس سنة ١٧٨٨ ، بينا كانت الأنداء تستقبل تحيات الأزهار وهى تتبدى فى خفر وعلى استحياء ، بعد رقادها دافئة فى ليل الشتاء الوسنان . فاستقبلت الوليدَ ، فى هـذا القصر الرفاف الأبراج ، أنسامُ الأدغال الهامسة إليه بسرّ الطبيعة الأكبر ، فلقنته فَنها ، وألهمته رسالته ، وهى أن يكون صوت الطبيعة الشادية التى استحال كل مافيها إلى موسيقى وغناء ؛ كما حَيّت مقدَمه لذاتـه وإخوانه فى الـكون الأكبر : العنادل والحَسّون والبلشون . الطبيعة حُـلْم عذب ، هكذا نادته هـذه الأطيار ، فاجعل منها إذن حُـلْماً تغنيه ، يا قيثارتها الإنسانيـة ونايها العاقل ؛ فلا تقع نفسُـك على شىء ، دون أن تحيله فى التوّ إلى أنشودة تجاوبت فيها ألحان الأسرار الـكونية ؛ ولا تتغنّ إلا بكل ما يكشف عنه الوجود من موسيقىّ غنائى : « فالليل الساجى كأنه البحر الهادى ، حيث السرور والألم وشَكاة الغرام تمتزج آتية فى تلاطم الموج الرقيق » ؛ « وحيث يصمت سرور الناس الصاخبُ ، فتزمزم الأرض مع الأغصان وكأنها فى أحلام ، هامسة بما لا يكاد القلب يعرفه ، من أزمان قديمة وأحزان رقيقة ، تسرى منها فى الصدر قشعريرة عذبة ترف فى أنحائه كالبروق » ؛ والعنادل التى يهيب بها أن : « استيقظى أيتها العنادل العزيزة ، أيتها الشلال الصافى الأصداء ! ولنسبّـح بحمد الربّ سويا حتى يضىء النهار ! » ؛ « بودى أن أعرف بماذا تغنى ، فى هذه العذوبة خلال الليل ، حيث لا يشاطرها السهادَ فى الدنيا أحد . فالسُّحب غادية ،

والأرض قاحلة ، والليل يجتاب الغاب فوق الأعشاب . الليل ، والسحاب ، أين هما ذاهبان ؟ هذا أعرفه تماماً ، فوراء الأعالى أرض ترقد بها حبيبتى . إن الراهب يدق نواقيسه ، ولكنها لاتسمعها ؛ وإن غدائرها لتتساقط على كل محياها . ولكى لا يخيفها إنسان ، دثّرها الله هنا بضياء القمر ، وهنا تحلُم بى » .

ولد إذن أيشندورف فى بقعة من الأرض يحمل كلُّ ما فيها طابع الموسيقى والغناء ، فليس بعجب إذن أن يكون كل ما سيصدر منه شعراً قابلا لأن يُتغنّى به ، وأن يستحيل كلُّ ما يمسه من مظاهر الطبيعة أنشودة رقيقة ، حتى إن النقاد ليجمعون على أنه خير شاعر غنائى عرفه الأدب الألمانى ، وحتى إن الكثير من أناشيده قد صارت اليوم أغانى شعبية تتردد فى كل مكان وعلى كل لسان فى ألمانيا . أجل إن لجيته قطعاً غنائية هى فى الذروة من الفن الرفيع من حيث وَحْدة العاطفة وسموّ الفكرة ، ومتانة السبك ، وكيان الصورة الشعرية ، وتجسيم الهمسات الوجدانية فى صور عيانية تغذى الشعور والعقل معاً . ولكنها لم تبلغ فى عذوبة موسيقاها ، ولا فى انطلاق إيقاعها ، وفيض تيارها العاطفى برقة وسهولة ، ولا فى قدرتها ، بالتالى ، على أن تستحيل إلى أغان ، مقدار ما بلغته مقطعات أيشندورف . وهذا أيضاً السبب فيما قد يشاهد في بعضها من سطحية فى الفكرة ، وتحلل فى الصورة قد يصل أحياناً حدّ التفسخ : فإن هذه الموسيقى الرائعة كثيراً ما تأتى على حساب عُلوّ الفكرة . وقد يكون هذا الفارق بين

جيته وأيشندورف راجعاً إلى نزعة الأول الـكلاسيكية ، ونزعة الثانى الرومنتيكية : فإن الرومنتيكى لا يعنى بإحكام الصورة ولا بالتأنق فى سبك أجزاء الوحدة الشعرية ، بل ينساب وراء عاطفته الساذجة انسياباً يشبه انسياب الأحلام ؛ مخلّصاً روحه ببساطة من قيود الفن الصّناع ، كى ينطلق التعبير فى خفة ورشاقة فينفذ إلى الآذان فى يسر ، وإن كان ينفذ منها فى يسر أيضاً ؛ والإيقاع ينبعث منه بمجرد هز وترٍ من أوتاره الرقيقة ، دافقاً فيضاً أتيًّا . أما الـكلاسيكى فيُحكم وضع القالب أولا ثم يضع العاطفة بإتقان فى داخله ، مهتماً خصوصاً بأن يفضى سـياق الـكل إلى معنى أو فـكرة هى دائماً الحادى الغنائى طوال المقطوعة ، بينا تجد كثيراً من المقطوعات الرومنتيكية لا معنى لها إلا فى مجرد إيقاعها وتآلف موسيقاها . وقد بلغ الميل إلى موسيقية القصيدة عند الرومنتيك الألـان ، خصوصاً تِيك وبرنْتانو ، حداً يكاد أن يصل فى أكثر المواضع إلى التصنع والصنعة الخالصة . فقد استحالت عندهم اللغة إلى غاية يحرص على طلبها قبل طلب ما تعبّر عنه ، حتى تشتتت الفـكرة فى هـذا المزيج الهوائى من الموسيقى المنسابة الـكثيرة الجناس المتشابكة القوافى . غير أن أيشندورف ، والحق يقال ، لم يَهْـوِ إلى الدرجة التى هبط إليها تيك أو برنتانو ، بل ظلت الموسيقى طبيعية لديه ، لا تـكاد تشعر بأنه يعتسفها مرة واحدة . وهذا لأن روحه كانت بطبعها موسيقية ، بينما كان حظ الطبيعة قليلا إلى جانب حظ الصنعة عند بـرِنْـتَانو أو تِيك . لذا

بقيت قصائد أيشندورف يُتغنى بها وتتذوق حتى اليوم ، بينا كاد الزمان أن يُعفّى على غنائيات أكثر الرومنتيك .

والميزة البارزة جداً فى قصائد أيشندورف الغنائية ، إلى جانب تلك الموسيقى ، أنها تأثرية إلى أقصى حد ، أى تتعلق بالمظاهر الرقيية العابرة الدقيقة التى تكشف عنها الطبيعة فى كل لحظة ، ماذا أقول ! بل فى كل ثانية طائرة لا يكاد من الممكن تثبيتها . فهو هنا فى الشعر الغنائى مُبَشِّر مبكر جداً بالنزعة التأثرية التى سادت التصوير فى أواخر القرن التاسع عشر على يد مانيه ، ومنه امتدت إلى بقية الفنون . فلا يكاد يفلت من أوصافه أىُّ تنوّع لونى ، أو أى تدقيق صوتى ، أو أى هاجس يتوارد فى النفس ؛ فهو يقتنص دائماً كل شاردة من المظاهر الطبيعية وكل واردة من الظواهر النفسية : انكسار شعاع الشمس المطفلة على حافة جبل ينساب إلى نهر ؛ أو هجوع بلشون يحلم على شاطئ البحيرة الساجى فى الشمس الضاحية وعند منتصف ظلال شجرة تدلت أفنانها بين لعب الريح فى الماء ، فكونت صورة طائرة لا تقوى على تثبيتها غير نظرة نافذة طائرة من عين ولهى حائرة ؛ أو نأمة ريح فى ذرى زيزفونة يسرى منها فى الغابة همس أرق من صوت الذكريات الحالمة تديرها فى داخلها نفس هادئة ؛ أو انفراج غابة إلى مرج عليه عشب استطال قليلا وتنزّت فيه قوى النماء . كل هذه المظاهر الطيارة يستطيع أيشندورف فى شعره ، ثم فى نثره — كما هو ظاهر فى كتابه الذى نقدم ترجمته بين يديك الآن ، —

أن يخطفها ويصفها توًّا فى لحن يترجم أصدق ترجمة عن الروح السارية فيها وعن الأضواء والألوان المنعكسة خصوصاً فى النفس منها .

وميزة ثالثة هى صدق الشعور . فالشعور هنا ليس زائفاً مغرقاً فى الخيال الزاهى والحُلم الذهبى البراق مما أغرق فيه بقية الرومنتيك ، خصوصاً فى الجيل الأول منهم — وهو الذى استمر تقريباً حتى سنة ١٨١٥ ، وينتسب إليه مؤسسو المدرسة وهم الأخَوان اشليجل (فريدرش وأوجست ڤلهلم) ونوفالس وتيك وڤاكنرودر . إنما هو شعور كأعظم ما يكون الشعور طبيعية ، بل وسذاجة وبراءة . لذا كانت قصائده خالية كلها من بهرج التصنع الزائف الذى يشاهد غالباً لدى أولئك . وإلى هذا يرجع بعض السبب فى يسر موسيقى أيشندورف أكثر منهم ، مما أشرنا إليه من قبل . وتتجلى هذه الميزة أيضاً فى نثره ، أو بالأحرى فى شعره المنثور ، لأن نثره شعر غير موزون ولا مقفى لغويا أو لفظياً ، وإن كان كذلك معنويا وشعوريا . ففى القصة التى نقدمها هنا تبدو هذه الميزة بكل وضوح : تعبير صادق عن كل ما يجول فى خاطره ، مع رشاقة وطلاقة وبراءة . لذا ينتسب هذا الشعر — أو النثر — بالأحرى إلى الشعر الفطرى الأوّلى الذى نجده فى شعر شعراء الطبيعة الأوّلين فى كل أدب : نجده عند پندار وثيوكريت فى اليونان ، وعبيد بن الأبرص وذى الرمة فى الشعر العربى ، وأوسيان فى القصائد المنسوبة إليه عند الكلتيين . وجمال هذا النوع من الشعر

لا يكاد يعدله جمال : لأنه صوت الطبيعة المباشر . ويظهر خصيصاً في عهدين متناقضين : عهـد السذاجة الأول أو عهد الصناعة المفرطة ، في الأول كتعبير عن أثر مباشر ، وفي الثاني كتعبير عن رد فعل ضد غلبة الصنعة . فإلى مثل العهـد الأول ينتسب پندار وعبيد بن الأبرص وأوسيان ؛ وإلى مثل العهد الثاني ينتسب ثيوكريت وذو الرمة وصاحبنا أيشندورف .

وشعر أيشندروف يكشف عن نفس حائرة ، ولـكنها ساذجة في حيرتها ، فلا تفضي بها الحيرة إلى الشك العنيف أو القلق العنيد أو البلبال المُلحّ . وبهذا امتازت من نفوس بقية الشعراء الرومنتيك (ونقصد دائماً الشعراء الرومنتيك الألمان ، لأن النزعة الرومنتيكية الحقيقية لم توجد إلا في ألمانيا ، وهي ظاهرة محليّـة لا يمكن أن تصدر إلا عنها — أما النزعات الرومنتيكية المزعومة في الخارج ، كما في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، فما كانت غير أصداء خافتة مشوهة ونغمات زائفـة مغتصبة للنزعة الرومنتيكية الألمانية) — لأن الغالبية ، على الأقل ، من هؤلاء معذّبون إلى أقصى حد ، يعانون من شقاء الضمير ألواناً لا حصر لها من القلق المريع والهمّ القتّال . ولست أدرى هل هـذه الميزة أعند أيشندورف تنتسب إلى مزاياه ، أو بالأحرى إلى عوامل ضعفه ؛ وإن كنتُ أكثر ميلاً إلى الرأى الأخير ، لأن القلق العنيف هو الباعث الأكبر على تعمق أسرار الطبيعة أكثر وأكثر ، بدلاً من الوقوف عنـد بمظاهرها السطحية . وعلى كل حال فقد كان

أيشندروف رقيقاً فى قلقه ، هادئاً فى وحشته . استمع إليه يعبر عن هذا أصدق تعبير فى قصيدة «الراهب» : «تعالَ أيها الليل الساجى ، فأنت سلوى العالمين ! كم أنت تصّاعد رفيقاً من الجبال ؛ بينا تنام الريح ؛ وليس ثمة غير ملاح أنهكه الإبحار ، فغنى على سطح الماء أغنية المساء ، مُسبّحاً باسم الله عند الميناء . إن السنوات تنقضى وتمضى كما يمضى السحاب ؛ وتدعنى هنا ماثلاً وحدى ؛ لقد نسينى العالم . ولكنك ، أيها الليل ، أقبلت جميلاً إلىّ ، حين كنت أجلس هنا ملءَ الرأس بالأفكار أستمع إلى زمزمة الغاب . إيه أيها الليل الساجى ، إيه سلوى العالمين ! لقد أحالنى النهار متعباً مكدوداً مُرتَهِك المفاصل ، والبحر الشاسع قد خيم عليه الإظلام ؛ فهيا هيىء لنفسى الراحة من الحاجة والعناء ، حتى يأتى الفجر الأبدى فيضىء الغابة الآمنة » . وهو كثيراً ما يتأسى لشعوره بالوحدة ، ولكنه لا يثور ، بل يُخْلد حينئذ إلى الشكوى الساجية العذبة ، شاكياً فى هدوء وحشته : « آه ! لكأن العالم لم يعمل حسابا لوجودى ! » ، كما قال فى القصة التى أمامك .

وهنا لا يسعنا فعلاً إلا أن نرق لحال هـذا البائس المتوحد ؛ وإن نفسنا لتنجذب بشدة وحنان سخىٍّ إلى هذه النفس الحائرة فى سكون . ونقر فى كل صراحة أنه يستهوينا أكثر ألف مرة مما يستهوينا هؤلاء الذى يرتفعون بالصراخ والعويل المصطنع حتى تصطك من شكاتهم المسامع . ماذا أقول ! بل هو وحده الذى يستهوينا ، أما هؤلاء الثرثارون الصخابون فلا يثيرون فى الواقع فى

نفوسنا غير النفور والاشمئزاز والانصراف عن هذه الطنطنة الجوفاء .
ويستهوينا أيشندورفُ ، نحن العرب ، أكثر مما يستهوى غيرنا من الأوربيين ، لأن آذاننا قد أصابها الصمم ، ورأسنا قد بلغ منها الدوار من جعجعة الشعر العربى الزائفة الناشزة المجوجة .

فموقف أيشندورف من قلقه موقف حبيب إلى النفس ، فريد فى بابه ، لا لأنه باب مفترق عن كل الأبواب ، بل لأنه فرق دقيق بين عديد من الأبواب : فقلقه ساخر ، ولكن برقة وعذوبة ، وفى هذا يختلف عن الخيام ، الذى كان فى سخريته رشيقا ، أجل ، ولكنه فى النهاية جبار هدام ؛ أما أيشندورف فيعرض لك سخرية الأقدار فى تسليم ، يختلف مع ذلك عن التسليم الذى يكون من نوع تسليم ألـفرد دِ ڤنى ، أعنى الإذعان الرَّواق فى صبر كظيم ؛ بل تسليم أيشندورف فكه خفيف يشير فى لمحات ، دون أن يظهر الصبر الكظيم ، ولسان حاله يقول : لا عليك ! فلا مناص من الخضوع لسخرية القدر ؛ وإبان هذا يبسم ابتسامة ماكرة . أما دِ ڤنى فيقول لسان حاله : ألا صبراً ! وعلى وجهه غيظ مكتوم . بينما الخيام يقول : ليكن ! وفى سيماه استهتار وتهانُفٌ حادٌّ لاذع .

ففى القصة التى بأيدينا تعبير عن سخرية أيشندورف من أفعال الأقدار ، ولكن فى ابتسام ماكر . فالشاعر اللائكى النفس مُعْوِز بائس لا يكاد أن يظفر إلا بالقليل من النعمة ، مع أن الأجلاف الغلاظ ينعمون رافهين . وروحه الطائرة لا تعرف إلا الجمال ، فيبعدها هذا عن النجاح فى الحياة كل البعد ؛ لأن القدم الثقيل

الروح هو وحده الذى ينجح فى الحياة . ولا تكاد الدنيا تبسم له وتتفتح له أبواب السعادة ، وكأن الدنيا قد خرجت عن طورها ، والناس قد صاروا غير الناس ، فيظن أن الأوضاع قد رفعت ، وأن روحه الملائكية يمكن أن تجازى فى هذا العالم ، بأن يُقدَّر فيه سموُّه فيحظى بالزواج من فتاة أحبّها من أول لحظة وظنها أميرة فى القصر الذى اشتغل به صبىّ بستانى فى البدء ثم محصّل مكوس . وفعلا تقبل عليه الدنيا ويحظى بالزواج منها ، ثم يكتشف — ويالسخرية الدنيا — فى الحال أن هذه التى حسبها أميرة ، ليست فى الواقع إلا ابنة أخ البوّاب ! رُبّيت فى القصر لأنها يتيمة فرقت لحالها سيدة القصر ، الأميرة الحقيقية . هذه الأميرة التى لم ترق فى نظر الفتى الحائر البائر ، وفضل عليها الأميرة المزعومة ، لأن هذه تفوق الأولى جمالاً بمراحل عدة ، فكان يسخر من السيدة الحقيقية ولا يحفل بأمرها ، بينا يسعى فى إرضاء الفتاة دون أن يحظى بشىء . وفى هذا تعبير عن سخرية القدر أيضا : فالسيدة الحقيقية الأميرة ضئيلة الحظ من الجمال ، ثقيلة الروح ؛ أما ابنة البوّاب فعلى قدر من الجمال وافر ، وروحها ملائكية عالية ؛ ثم هذا التوهم الذى وقع فيه فى خلطه بين الأميرة الحقيقية وتلك الأخرى من شأنه أن يزيد فى لَذْع التهكم . فضلاً عن إحكام العقدة فى صياغة القصة .

وفيها أيضا وصف رائع للحيرة والقلق اللذين لايستطيع منهما الرومنتيكى خلاصاً ولا فكاكا . فهو دائم القلق لا يستطيع أن

يستقر بمكان ؛ ولا يكاد يقر بمكان قليلا ، حتى تثور فى نفسه فى الحال نزعته إلى الترحال ، والحنين إلى التجوال ، فى كل الآفاق . أجل ، قد تنتابه ، فيما بين الحين والحين ، نزوات الاستقرار فى مكان ، والسكون إلى زوج ومنزل ومركز اجتماعى ، أى حياة بورچوازية . ولكنها نزوات طائشة عابرة لا تستطيع مطلقاً أن تثبت أمام أبسط خاطر يثيره حنينه الدائم إلى السياحة فى الدنيا . وفى هذا تتجلى الروحُ الرومنتيكية فى مظهر من أوضح مظاهرها : فهى روح وثابة غير مستقرة كثيرة البلبال ، سريعة تغيير الحال ، هوائية الانفعال ، معذبة بالنقائض من الأمانى والآمال . ولئن كان هـذا هو الموضوع الخالد لدى كل رومنتيكى حقيقى ، فإن معالجة أيشندورف تمتاز من غيرها — والتمايز هنا مجرد افتراق لا امتياز — بأنها تجعل البطل يتجول حسيا ، لا معنوياً فحسب ؛ بينما نرى أبطال كثير من الرومنتيك لا ينتقلون مادياً كثيراً ، بل المهم أن ينتقلوا روحياً من مذاهب أو أحوال نفسية إلى غيرها باستمرار ؛ وإذا كانوا ينتقلون بهم مادياً فى أحيان كثيرة ، فإن المهم هو التنقل الروحى الذى وصفناه . والنموذج الذى اتخذه الرومنتيك هنا ، كما فى مواضع كثيرة — مع الفارق الكبير مع ذلك — هو قصة « ڤِلْـهِـلْم مَيسْـتِر » لجيته . فقد عنى بأن يرحل ببطله ڤلهلم إلى إيطاليا ، ولكن المهم عند جيته فى تنقل ڤلهلم الروحى كان تنشئته الروحية ، لأن قصة « ڤلهلم ميستر » قصة تنشئة قبل كل شىء .

وأيشندورف يأخذ عن جيته — كغيره من الرومنتيك الذين جعلوا قصة جيته هذه إمامهم الأدبى — التنقل ببطله إلى إيطاليا . بل ويقتبس — إشارةً — منه التعبير الخاص بالحنين إليها ، مما عبر عنه جيته بكل روعة وجمال فى إحدى المقطوعات الغنائيـة الموجودة بقصة « ڤلهلم مَيِسْتَر » وهى المقطوعة الموسومة عادة بعنوان « منيون » . ذلك أن إيطاليا كانت تعتبر — ولا زالت — مصدر الحنين عند أصحاب الفن جميعاً — والشعراء خاصة — نظراً إلى آثارها الفنية أولا ، ثم إلى شمسها الدافئة خصوصاً . فالشمالى الغارق فى الضباب الـكثيف تستهويه إيطاليا بسمائها الصافية وريفها الضحيان وشمسها المتوهجة ، وألوانها الزاهية البرّاقة . حتى أصبحت الـكلمة « الحنين إلى الجنوب » تعبيراً مسجّلا عن النزعة روحياً إلى إيطاليا ماديا ، وإلى وضوح الصـورة وحرارة الوصف ونصاعة المعانى وبرقان الألوان فى الآثار الفنية ، فـكان طبيعيا إذن أن يقتاد أيشندورفُ بطلَه الحائر البائر إلى تلك البلاد . غير أن بطله قد عاد ساخطاً عليها . أفـكان سخطه هذا لأنه لم يظفر بحبيبته هناك فعاد فاشلا ؟ أم كان سخطاً عاماً يجب أن يفهم على أنه ثورة من أيشندورف على تلك النزعة التى سادت بقية الرومنتيك ؟ فـكان ذلك منه ردَّ فعلٍ ضدهم ، وإن كان منهم بلحمه ودمه ، كما فى مواضع أخرى ؟ السبب الأرجح هو هذا الأخير ، وإن كان للأول دخل فيه فى الظاهر ؛ لأن الحائر البائر قد فرّ من إيطاليا سريعاً ولم يحتمل البقاء بها لأنها بدت له مُزَيَّفة فى كل شىء

تبدى له منها : فى غرامياته وفى آثارها وطبيعتها وساكنيها . فنعتها حين غادرها إلى وطنها بأنها بلد مزيف . ويرجح هذا التفسير خصوصاً أنه لم يتلبث ولو قليلا عند آثارها ليصفها بهدوء . فروائعها الفنية لم تكد تحظى منه بشىء ؛ وجمال جوها لم يؤثر فى نفسه كثيراً ، بل فضل عليه جو وطنه . وهو قد ذهب إلى إيطاليا ، لا من أجل البحث عن حبيبته ، فالصدفة وحدها هى التى أنبأته أنها هنا — إذ سمع الأغنية التى اعتادت أن تغنيها تصدر من أحد المنازل فى روما — ؛ فلا يمكن أن يقال إذن إن هذا العاشق المتلهف قد أتى لمهمة خاصة هى البحث عنها ؛ بل بالعكس ، هو قد أتى هنا يأساً من الظفر بمحبوبته ، ورغبته فى التجوال لمجرد التجوال . فالأحرى إذن أن يقال إن أيشندورف كان هنا معلنا عن ثورته على نزعة بقية الرومنتيك .

وقد يحلو لك بعد هذا أن تسأل : وماذا بقى إذن من رومنتيكية أيشندورف ؟ و نجيب فنقول : بقيت الروح الرومنتيكية الشعرية الخالصة ، وإن كانت بدرجة أقل مما هى عنـد الرومنتيك الأصليين . فهؤلاء الممثلون للجيل الأول قد مثلوا هذه النزعة بكل ما فيها من مزايا وبلايا . أما هو فينتسب إلى الجيل الثانى ، وهو جيل قد خفف كثيرا من مغالاة الجيل الأول ، فكان أكثر طبيعية وأصدق تعبيراً وأحكم للصياغة وأضبط للخيال . لأن النزعة الطبيعية فى الأدب والفن كانت قد ظهرت بوادرها حينذاك كرد فعل ضد الرومنتيك ؛ فكان على هؤلاء الرومنتيك المتأخرين أن يعملوا لها

حساباً ، فيتقهقروا عن بعض من المواقع الأمامية التى كانوا يستولون عليها من قبل إبان الجيل الأول . ولست أدرى بعدُ من كان أكثر رومنتيكية من أخيه ! لأن الأمر يتوقف هنا على فهم مدلول هـذه الـكلمة ، وهى قد فهمت بعدة معانٍ تجعل المرء فى حيرة من أمر التفضيل بين كلا الجيلين .

وعلى كل حال ، فلم تكن صلة أيشندوف بالجيل الأول وثيقة كثيراً ، وإن كان قد أعلن انضمامه للحركة منذ أن نشأت رسمياً سنة ١٧٩٨ . فهو قد عرف أولاً — أثناء مقامه فى هيدلبرج ، حيث ذهب للدراسة فى جامعتها ، آرنم وبرنتانو ؛ ومن بعد عرف فى ڤينا فريدرش اشليجل . ولما كان حينئذ حديث السن ، فإنه لم يستطع اللحاق بالرعيل الأول من الرومنتيك الذى يمثله مؤسسو الحركة : الأخوان اشليجل وتيك ونوفالس . بل كوّن ما يسمى عادة بالجيل الثانى هو وآرنم وبرنتانو وهوفمن وشامسو . وهو يمتاز منهم جميعاً ، سواء أبناء الجيل الأول أو أبناء الجيل الثانى ، بأنه الشاعر الغنائى الأول ، فإن قصائده الغنائية فى ذروة الفن الرومنتيكى فى باب الشعر الغنائى . فإذا كان اشليجل يفوقه فى سعة الأفق وتعدد المناحى الروحية وتشعب الثقافة ؛ وإذا كان تيك يمتاز عنه بصفاء الروح ، وعذاب الضمير ، وإرهاف الحس والقلق ، وخصب الإنتاج ، والإغراق فى الأحلام ؛ وإذا تذرّاه نوفالس من حيث عمق الفكرة والمذهب الوجـودى وراء الإنتاج الأدبى ، وتوتر النفس بعذاب الألم المُلْـهِم ؛ وإذا كان هوفمن

أوسع منه خيالاً ، وأكثر منه فى الأساطير والأوهام والأسرار إيغالا ، وتشوبه مسحة من الحزن المذب والخوف المُغرى — إذا كانوا يزونه هكذا كلٌّ من ناحيته ، فليس من شك مطلقاً فى أنه فى الشعر الغنائى قد أبرّ عليهم أجمعين .

وهو قد كان غنائياً فى كل ما صدر عنه من آثار : فى الشعر ، والقصة ، والمسرحية . وهذا هو السرّ فى امتيازه فى الشعر ، وتخلّفه فى القصة والمسرحية . فالقصة عنده خالية من الأحداث ، فقيرة فى الأشخاص الحية الواقعية ، تكاد كثيراً ما تذوب فى الإطارات الطبيعية التى تعنى أيشندورف قبل أن تعنيه الأشخاص . فقد كان من شأن هذه النزعة الغنائية أن تجعل الشاعر يخفق فى إعطاء الأشخاص صوراً عيانية متقوّمة محدودة الملامح بادية الرسوم . وهذا عيب ظاهر إذا كانت القصة يقصد بها إلى دراسة أحداث أو أشخاص : إذ ينتهى الأمر عادة بزوال هؤلاء الأشخاص وفناء تلك الأحداث فى ضباب كثيف من الغموض والتفكك فى الشخصية ؛ والخُلق ، الذى يعد المحور الذى يدور من حوله كل شىء فى القصة أو المسرحية ، لن يكون حينئذ إلا فى حال من الانحلال بائسة ، فلا يقوى الشخص على التأثير فى الحياة أو مواجهة ما فيها من مآسٍ ، ولذا ينتهون غالباً إما بالاعتكاف فى الدير ، أى بالاستقالة من الحياة ، كما فعل بطل قصته الكبرى : «الاستشعار والحضور» التى ظهرت سنة ١٨١٥ ؛ وإما بالانتحار كما فعلت بطلة القصة نفسها ، وإما بالذهاب إلى بلد سحرى

غريب عندهم ، كذهاب أحد أشخاص القصة إلى مصر لدراسة السحر — مصر التى تُصَوِّرها الأساطير الرومنتيكية على أنها بلد السحر والتنجيم — وإما بغير ذلك من الوسائل التى تدل على العزوف عن الحياة ، لأن الشخص لم يستطع أن يحل مشكلتها . فعلى الرغم من أن هــذه القصة صادقة الشعور إلى أقصى درجة ، حتى قال عنها المؤلف إنها فلذة من حياته الخاصة ، فإنها تنحل بأشخاصها فى ضباب من الخيال الواهم السَّيال . وكذلك كل أشخاصه : هم أناس بلا هدف ولا طبيعة فعالة مؤثرة ، بل ذوو نفوس منفعلةٍ دائماً ، وكأنهـا قُدّت من حساسية خالصة لا يداخلها عقل ولا يحكمها منطق ولا تقتادها إرادة . إنما الروح الغنائية هى وحدها التى تعطى لهذه القصص أو الأقاصيص قيمتها الفنية . وإن كان لبعض الأقاصيص قيمته من حيث تصويره لأحداث معينة فى فترة تاريخية معلومة مثل « قصر دوراند » فى تصويرها لعهد الثورة الفرنسية ؛ أو من حيث ما به من إشارة اسطورية طريفة كما فى أقصوصة « الصــورة المرمرية » فى معالجتها لقصة تَـنْهويْزَر مما سيكون له أثر فى قَـْجـنَر فى روايته الغنائية « تنهــويزر » .

ومع هذا كله ، يجب أن نستثنى من هذا الحكم على قصص أيشندورف ، أقصوصة « من حياة حائر بائر » التى نقدمها إليك الآن . فإنها وإن خضعت لهذا الحكم إن قُـوّمت على أنها قصة بالمعنى العادى المفهوم منها ، خصوصاً كما يفهمها أصحاب النزعة

الطبيعية أو الواقعية فى القرن التاسع عشر — فإن قيمتها مع ذلك لا يجب أن تقاس بهذا المقياس ، لأنها تكوّن نوعاً فريداً من القصص ، يحلو لنا أن نسميه « القصص الغنائى » .

يمتاز هذا النوع بأن البطل فيه دائماً شخص مثالى إلى أقصى درجة ، يعذبه حنين إلى آفاق أخرى يحمله إليها خياله الوردىّ الجناح كى يتقلب فى فيض من النور الرائع ؛ وهو لا يحيا فى الواقع إلا بجسمه ، لذا لا تربطه بالأرض وشائج متينة أبداً ، بل يمر عليها كظل عابر ؛ والأحداث التى يمر بها ، والأشخاص الذين يتصل بهم ، لا قيمة ولا معنى لوجودهم بالنسبة إليه إلا من حيث كونهم أدوات ومجالات لإثارة نفسه وإهاجة حسه وإشعال خياله . وعدا هذا فلا قيمة لهم أبدا . لذا ليس يعنى المؤلف فى شىء أن يضفى عليهم من الحياة أكثر مما يقتضيه تحقيقُ تلك الغاية بالنسبة إلى البطل الأصيل . وهذا البطل لا يأتى من الفعال بما ينبئ بأنه يريد التأثير فى الحياة ، بقدر ما يبغى منها أن تكون وسيلة لإثارة جهاده فى التوفيق بين الحقيقة والمثال ، أو بالأحرى فى سيادة المثال والقضاء على الواقع بما ينطوى عليه من تفاهة ووضاعة . وهو جهاد يتجه عدة اتجاهات وفقاً لطبيعة المؤلف أو لتطوره الروحى فى معارج تطوره المتصلة . فأحياناً ينتهى الأمر بالبطل إلى نوع من الزهد — الزهد الإيجابى ، لا الزهد السلبى البائس المستقيل من الحياة — ، كما هى الحال مثلاً فى أمر ڤِلْهلم بطل قصة « ڤِلْهلم مَيسْتر » لجيته . وأحيانا أخرى ينتهى أمره

بالانتحار أو التسليم المعادل للانتحار ، كما نجد ذلك ممثلاً إلى أعلى درجة فى ڤرتر بطل قصة « آلام الفتى ڤرتر » لجيته أيضا . ومرة ثالثة يؤول بالبطل المآل إلى يأس سلبي يتّسم بالملال والضيق ، كما نرى ذلك فى كثير من أقاصيص توماس مان ، وبخاصة أقصوصة « طونيو كريجر » و « الموت فى البندقية » . ولكن هذا الاتجاه الثالث مَرَضى فى كثير من أحواله ، إذ أصحابه مصابون عادة بالجنون المعروف فى الأمراض النفسية بالحمق الجنونى الانحطاطى . أما النوع الأول فأكثرها صحة وسلامة ؛ بينما الثانى مترجّح بين الناحيتين : إذ ليس من السلامة والصحة بقدر النوع الأول ، كما لا ينزل إلى مستوى النوع الثالث ، لأنه ، وإن انتهى بالانتحار أحيانا ، فإنه مع ذلك إيجابى إلى حد كبير ، لأن صاحبه يظل يناضل حتى النهاية ، ولأن روحه متفتحة الأبواب على آفاق واسعة عديدة ، فى الطبيعة أو النفس ، بينما النوع الثالث منطوٍ على نفسه إلى درجة هائلة ، فلا يكاد أن يصل إليه من الطبيعة نور ولا أثر ؛ لذا تراه غالباً عاكفاً على أوهامه يجيلها فى نفسه وكأنها تدور فى ساقية تدور أبداً ، يغذيها دائماً الإيمان الذاتى والغيظ الكظيم العاجز ، والوهم المنقبض الشاحب ، والخيال المحصور فى دائرة من الرتوب .

والصناعة الفنية تقوم فى هذا النوع من القصص على أساس وصف المناظر الطبيعية العابرة ، التى تلتقط عادة اختطافاً ، ولذا تسودها النزعة التأثرية فى التصوير والوصف ؛ وتحليل الأحوال النفسية

فى تطورها الذاتى حتى يتكون عن مجراها الطويل منحنى تطور كامل فى نفسه ، وكأنها دائرة مغلقة ؛ وكل إشارة أو حدث أو شخصية يجب أن توجد أو تنعت أو تقوّم وفقاً للأثر الذاتى الذى تعكسه على البطل ، ولا قيمة لها فى ذاتها ، بل ولا فى أحداث الكون العامة أو مجرى الحياة عامة ، بل كل مدلولها يقوم على أساس الإشارة الدائمة إلى البطل باعتباره مركز الإحالة الوحيد . وفى النوع الأول والثانى خصوصاً يسود الميل إلى التوحيد بين الطبيعة والبطل إلى درجة المشاركة الوجدانية الواحدة بين كليهما ، وهذا من أثر الطابع الذاتى البارز فى شخصية البطل ، لأن الذاتية تحاول أن تحيل الكون الخارجى إلى طبيعة ذاتها ، مما تتولد عنه مثالية تكاد أحياناً أن تكون مطلقة ، وهذا أظهر ما يكون عند الرومنتيك . كل هذا من حيث الفكرة ؛ أما من حيث الأسلوب ، فإن الطابع الذاتى الذى يتسم به هذا النوع لا يعبّر عن نفسه جلياً إلا فى المناجيات أو الاعترافات . لهذا يجرى سرد القصة بلهجة ضمير المتكلم ، كما فى القصة التى بين أيدينا ؛ أو على شكل رسائل ، وهى أيضاً تجرى بلهجة ضمير المتكلم ولكن فى غير اطراد ، مثلما نشاهد فى «فرتر» أو «هلويزا الجديدة» لروسو ؛ أو على هيئة اعترافات ظاهرية ، كما فى قصة «اعترافات فتى العصر» لألفرد دى ميسيه . وهذا يضفى على القصة طابع الإفضاء بالسر والألفة ، مما يستهوى النفوس الحالمة أكبر استهواء . واللغة يجب أن تكون كلها غنائية شعرية ، حتى لو لم تكن قد كتبت

شعراً ، كما يبدو ذلك ظاهراً بوضوح فى « ڤرتر » ، وبشكل أكثر وضوحاً جداً فى أقصوصة « من حياة حائر بائر » التى بين يديك . فالنثر هنا موسيقىٌّ إلى أبعد حد ، والألفاظ منتقاة كى تكوّن تآلفاً وانسجاماً لا يقل فى إيقاعه عن إيقاع النظم كثيراً . لذا كثيراً ما نعثر على كثير من الأبيات أو أنصاف الأبيات ممزوجة بالنثر فى غير تكلف ولا استكراه . وهذا طابع مميز جوهرى لهذا النوع من القصص ، لأن كل ما يمسه البطل يستحيل إلى شعر مهما كان من تفاهته وغلظه لو نظر إليه من ناحية أخرى . لذا حرصنا كل الحرص فى هذه الترجمة على تحقيق هذه الغاية ، حتى أتى كثير من أنصاف الأبيات ، بل والأبيات ممزوجاً فى سياق النثر ؛ وما ذلك إلا لأن المعانى المعبّر عنها هى بعينها شعر ، ولذا تسرع إلى الكاتب المعبّر مهيبة به أن يحيلها إلى ألحان وأنغام شاء ذلك أو لم يشأ . ونحن لا نقصد من جعل الموسيقى شرطاً لهذا النوع من القصص ، ما يعرف عندنا فى الأدب العربى بالمحسّنات البديعية ؛ فهذه قد يفيد البعض منها فى تحقيق هذه الغاية ، وبخاصة الطباق والسجع والجناس ؛ إنما نقصد خصوصاً ذلك التآلف النغمى الحسى الذى تستحيل معه الألفاظ إلى ألحان يكفى مجردُ سماعها لكى توحى إليك بالمعانى والأفكار ؛ أى أننا نريد من موسيقى اللفظ أن تكون معبّرة تماماً ، كما تعبر موسيقى النغم ، عن أحداث ومناظر طبيعية وأحوال نفسية ، مما هو مشاهد فى السمفونيات ، وموسيقى الأوبرات دون المناظر والأشخاص .

فعلى اللفظ المستعمل إذن أن يكون قادراً على الإيحاء بكل المعانى التى يستهدفها المؤلف ، من مجرد سماعه ، بأن تكون له قوة صوتية خاصة كافية وحدها وفى ذاتها لتحقيق تلك الغاية . وهـذا سرّ الفن الأكبر ؛ هذا السرّ الذى أساء فهمه الأدب العربى فى نثره ، خصوصاً بعد القرن الثالث الهجرى ؛ فاستحال إلى هَوْهمة شنيعة ليست من الفن النثرى الرفيع فى شىء . حقاً إن اللغات تتفاوت فى قدرتها على تحقيق هذه الغاية ؛ فبعضها كالألمـانية يبلغ الذروة فى الإيحاء بمجرد الرنين الصوتى ، فلا تـكاد تسـمع نثراً ممتازاً إلا وتتفتح لك ، بفضل رنينه الصوتى وحده ، عوالم لا حصر لها من المعانى والأحلام والمناظر الطبيعية والخوالج النفسـية ؛ وبعضها الآخر كالفرنسـية يصب لك المعنى كله مرة واحدة ، فلا يدع للإيحاء سبيلا ؛ والإنجليزية فى مرتبة بين الألمانية والفرنسية ؛ والإيطالية كلها موسيقى ، ولـكنها خالية من الإيحاء ، لأنهـا لا تتجاوز طبلة الأذن إلى النفس ، بل تظل تقرع الطبلة دون أن يُفتح لهـا من الداخل . وهذا يدلنا على الفارق بين الموسيقى الملهمة والموسيقى المطربة ، سواء فى اللغة أو فى فن الألحان : فالألمانية قليلة الإطراب فقيرة فى الموسيقى التطريبية إلى حد كبير ، ولـكنها أغنى ما يكون فى الموسـيقى المُلهمة أو الموحية ؛ وعلى العكس من ذلك نرى الإيطالية ثرية كل الثراء فى الإطراب ، كثيرة الإملاق فى الإيحاء . أما اللغة العربية فقريبة من الإنجليزية فى مدى قدرتها على الإيحاء والإطراب : فهما يجمعان بين الناحيتين

بنسبة متقاربة دون أن تتفوق فى إحداها تفوقاً بارزاً ، ودون أن تكون فقيرة فى إحداها أيضاً بشكل واضح . ولكن ، وعلى الرغم من كل هذا التفاوت — الذى يخطىء المرء فى تقديره كثيراً ، خطأه فى كل تعميم نظرى — فإن الأمر يتوقف فى الجانب الأكبر منه على ملكة الكاتب . فعلى كل كاتب فى هذا النوع من القصص الغنائى أن يستخدم موارد اللغة إلى أقصى درجة يتيسر معها أن يهيىء مجردُ الرنين اللفظى الصوتى أن يوحى بأكثر جداً مما يوحى به ظاهر اللفظ فى معناه المجرّد . ولعل لنا عوداً قريباً إلى عرض نظريتنا فى هذه المسألة بالتفصيل ، لأن الخلط فيها ، فى الأدب العربى ، قد بلغ أقصى درجة من الشناعة والاضطراب . ونحن أحوج ما يكون ، للاهتداء فى هذه المسألة ، إلى أبحاث الأوربيين ، لأن حل المسألة واحد تقريباً ، مهما اختلفت اللغات .

تلك إذن الخصائص العامة لهذا النوع من القصص الذى نعتناه باسم « القصص الغنائى » ، سواء ما يتصل منها بالمادة ، أو ما يتعلق بالصورة . ولعل النموذج الأعلى لهذا النوع هو قصة « آلام الفتى ڤرتر » لجيته : ففيها كل الخصائص التى أوردناها تبدو بارزة قد أوفت على الغاية . ولعل من أحسن ما يمثله أيضاً الأقصوصة التى بين يديك الآن : « من حياة حائر بائر » . فلئن فاقتها « ڤرتر » من حيث عمق الفكرة ، وجلال الموضوع ، وما بها من طابع أسيان هائل ، وميل إلى الجِد ظاهر ، لأن الأمر فيها أمر معنى الوجود والحياة ، أمر : أكونُ أو لا أكون ، كما هو موضوع

« هاملت » ؛ — فإن قصة أيشندورف برّزت عليها فى حرارة الوصف . إذ الوصف عند جيته يشيع فيه بعض من البرود ، أو على الأقل لا يبلغ فى حرارته مبلغ وصف أيشندورف ، ولعل ذلك راجع إلى كون جيته كان ، حتى فى تلك السن الشابة ، يحمل الطابع الكلاسيكى الذى سيبرز فيما بعد ، مما يضفى على أوصافه كثيراً من الاتزان والانسجام والهدوء ، وكل هذا على حساب حرارة العاطفة والتهاب العبارة ؛ بينما كان أيشندورف رومنتيكياً ينطلق فى حرارة وحماسة مشبوبة لا يزعهما العقل المتزن ولا الانسجام الموفّق . كما تمتاز قصة أيشندورف كذلك بما فيها من قصائد غنائية جاوزت الغاية فى الرقة والموسيقى واتساع الجناح النغمى . ولعل جيته قد أحس بما فى قصته من نقص فى هذه الناحية ، فحاول أن يُكمله بواسطة قصائد أوسيان التى ترجمها وأدخلها فى القصة . ولكن هذا لا يجعلها مع ذلك تبرّز على قصة صاحبنا فى هذه الناحية الغنائية . كما أن « من حياة حائر بائر » تفترق عن « ڤرتر » بما يشيع فيها من روح دعابة ومزاح وتهكم ، قد خلت منها تماماً قصة جيته : ففى هذه من الجدّ ما لا يدع أى مجال للدعابة والمرح . فإذا كانت « ڤرتر » تحملنا على الإعجاب بما فيها من جلال ، فإن « من حياة حائر بائر » تستهوى نفوسنا وتخلب ألبابنا بما فيها من تهكم ومزاح جذابين ، ماذا أقول ! بل ضروريين للحياة .

ذلك أن « التهكم » ، خصوصاً كما فهمه الرومنتيك ، ليس ذلك الهزل الأجوف السطحى التافه الذى يقصد به إلى مجرد

الترويح فحسب . إنما التهكم بمعناه الخصب الملىء هو ، كما يقول فريدرش اشليجل : « الشعور الواضح بالحركة الدائمة للخليط اللانهائى الفياض » ، « وعلينا أن نستطيع الارتفاع بنفوسنا فوق حبنا الخاص ، وأن نتنكر فى ذهننا لما نتمشقه ونعبده . فبهذا الثمن ، وبه وحده ، نظفر بمعنى الوجود » . وتِبيك يرى أن الإنسان لا يملك معشوقه إلا ابتداء من اللحظة التى فيها يكتشف فيه لمحة تثير الضحك ؛ وليس فى وسعه أن يكون له حبيب أو حبيبة دون أن يتهكم عليه ويسخر منه . ولا يجب أن يعتبر فى هذا التهكم أدنى إساءة إلى الصديق أو الحبيبة ؛ بل بالعكس : هذا مظهر من مظاهر حبنا للواحد منهما . وكما لاحظت ريكاردا هوخ ، فى حديثها الممتع عن التهكم الرومنتيكى فى كتابها الرائع عن الرومنتيك ، إن هذا التهكم هو ذلك التهكم اللذيذ العذب المعروف عند اليونانيين الذين كانوا يضحكون بكل رقة ورشاقة من آلهتهم ، دون أن تكون فى ذلك أية إساءة لهم كائنة ما كانت . فآلهتهم أنفسهم سخروا من آرس وأفروديت على الرغم مما هما عليه من جمال وقوة ، وعلى الرغم من أنهما يسكنان مثلهم قمة الأولمب . ذلك أن الرومنتيك يرون فى الانعكاف المطلق على الألم خطيئة ؛ كما يرون من الحمق أن يُظن أن المزاح والتهكم من شأن الأطفال وحدهم .

وأنت لا تقلب صفحة من القصة التى أمامك دون أن تجد فيها روح الدعابة والتهكم فاشية ظاهرة . غير أن أيشندورف لم يغالِ فى فهم التهكم ، فلم يجعله هدّاماً كما هو عند اشليجل ومن

تأثره من الفلاسفة ، خصوصاً من ينتسبون إلى النزعة الرومنتيكية ، ومنهم كيركجورد فى بعض مراحل تطوره . بل هو تهكم رشيق يترفق غالباً بالأشخاص ، لأنه يعرف جيداً ما تنطوى عليه الطبيعة الإنسانية من ضعف يحمله الرثاء لها والحدب عليها ألا يرهقها من أمرها عسراً . وهذا لا يمنع من أن فى القصة كثيراً من الفصول والأوصاف التهكمية التى تقضى على الشخصية بأكملها كما أشرنا إلى ذلك فى حواشينا على القصة ، وبخاصة ما كان متصلا بالحاجب ، أو بهذا القزم الدحداح الذى عرفه فى أول نزل أقام به فى إيطاليا .

وسر هذا الفن فى جانبه الرفيع يقوم فى الوصف الهزلى الذى لا يلجأ إلى السباب أطلاقاً . فهو يصف الشخص بواسطة قسمات تصويرية تكون عنه فى مجموعها صورة عامة مقنعة كل الأقناع . وتلك هى البراعة الفنية حقاً ، مما يجعل التهكم فناً من أعسر الفنون ، ويجعل التبريز فيه ميزة لا تتوفر إلا لكبار الفنانين . وهذا يدلنا على المقياس الذى يجب أن نعتبره فى الحكم على قيمة أنواع التهكم أو السخرية التى نجدها عند الأدباء : فلا يجب أن نعتبر فى الهجاء المكون من سباب وشتائم ، أو من أوصاف صريحة فجة مثل وصف الشخص بأنه « قرد يقهقه أو عجوز تلطم » أى فن ، بل هذا أبعد الأشياء عن الفن وعن كل ما يتصل بالفن . وهكذا الأمر أيضا فى أكثر ما نجده فى الأدب العربى من تهكم : أوصاف مبتذلة فجة ، وشتائم صريحة مرذولة ، بينها وبين الفن الرفيع

عداوة مستحكمة . ولا نكاد نستثنى فى هذه الناحية غير الجاحظ فى بعض المواضع ؛ فضلاً عما لنا هنا من تحفظات عدة فيما يتصل بقيمة تهكمه لو قورن بتهكم غالبية الرومنتيك . ولكن المجال هنا ليس مجال مقارنة أو بيان تفصيلى ، فكفانا إذن هذا القدر . ولنا عَوْد .

والبديع فى أمر تهكم أيشندورف أنه لا يستهدف الآخرين وحدهم ، بل يستهدف نفسه أولاً وقبل كل شىء ؛ مما يُضفى على أوصافه نوراً من الصدق فى التعبير والإغراء فى الاستهواء ، لا يتوفّر لدى كثيرين من الرومنتيك وغير الرومنتيك . وهذا ما يحببنا أكثر وأكثر فى شخصية هذا الحائر البائر الظريف .

هذا « الحائر البائر » يمثل اتجاها ما أعزه إلى نفوسنا معشر الشباب ! إنه يمثل نزُوعنا القَلِق الحارّ إلى آفاق واسعة نريد أن نفرّج فيها عما نشعر به فى داخل نفوسنا من ميلٍ إلى اكتناه أسرار المجهول فى هذه الحياة التى قُذِف بنا فيها دون أن نجيد السباحة فى خِضَمّها الرهيب ؛ ومن إحساس زاخر بما لدينا من قوى تريد أن تجدلها مجالا للتحقق ، ولكنها ترتطم دائماً بساحل التفاهة والوضاعة الذى لا يلبث أن يردّها عن قصدها كيما يجور بها عن سواء السبيل ؛ كما يعبّر ببراعة عن رغبتنا الظامئة أبداً فى أن نحيا أقوى وأصخب أنواع الحياة ، فلا نُخْلِد إلى واقع مبتذل نكون فيه مواطنين طيبين ، بل نسعى دائماً إلى تجربة كل ما يمكن أن يعرض للمرء فى الحياة من أحداث ، حتى يعانى من التجارب الحية أوفر نصيب . فالحياة الحقيقية ، الحياة الجديرة بالاحتفاظ بها

والتوغل فيها ، هى تلك الحياة القلقة السيالة المتنقلة دائماً من تجارب إلى أخرى جديدة باستمرار . فالعالم ملىء بالمفاجآت ؛ والوجود مكون من وثبات ؛ والحى حقاً هو الذى يستطيع أن يحقق كل ما به من إمكانيات ؛ ولن يتيسر له هذا إلا بالتنقل الدائب الطيران من أحوال إلى أحوال ومن درجات إلى درجات . وهـذا التنقل لا يجب أن يتم على خطوات متدرجات ؛ بل علينا أن نقوم به على هيئة طَـفَرات ؛ محلقين دائماً حتى ولو حدتنا فى ذلك نَزَوات . علينا أن نحاسب أنفسنا فى كل لحظة : أية إمكانية جديدة حققتَ لنفسك ممـا تنطوى أنت عليه ؟ دع التكرار ، ولا تحفل إلا بالتجارب الجديدة ، واعتبر كل تكرار فقداناً وضياعاً كبيرا . فللـكسلى وأحْلاس الأوضاع الثـابتة والتقاليد المتحجرة أن يتجمّـدوا فى قوالبهم الميتة ، لأنهم فقدوا كل حياة حقيقية ، وإن تردد فى نفوسهم ذَماء ، هو أشبه ما يكون بحشرجة المُـحْتَـضَر ، آلى الموت يميناً أن يزيد فى تعذيبه . أما الأحرار أصحاب النفوس المتوثّـبة فليست لهم فى الحياة غير غاية واحدة هى التعالى الدائم ، وليس لهذه الغاية إلا سبيل واحدة هو المرور بتجارب جديدة باستمرار . وهؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون التنعّـم بالحياة الخصبة المليئة بالفَـعال وبالجليل من الأعمال . فلننطلق إذن فى أجواز الفضاء مغامرين ناشدين أخطر التجارب ، لأنه :

إنْ أرادَ اللّهُ إظهـارَ رضاهْ
لفتىً ، ألقاه فى الـكَـوْنِ يجولْ

كى يَرى أمجاده فيما يَراهُ :
جبلٍ ، نهرٍ ، وغابٍ ، وحقولْ .

ولأن القعود عن تحصيل الجديد من التجارب ، والإخلاد إلى الراهن من الأوضاع ، سيحرم المرء من كل نور ، وبالتالى من كل حياة ؛ لأن دائرة تحقيق امكانياته ستكون ضئيلة جداً ، فهما تعمقها فلن يظفر منها إلا بالتافه القليل . ولتكن الطبيعة بما فيها من أطيار وعواصف هادياً له يستهديه سبيل الحياة الحرّة :

إنّ حِلس البيت والكَسلى النيامْ
لن يَرَوْا فى الضجر أنداء الضياءْ
ليس يدرون سوى مهد الغلام
وهمومٍ وافتقار وغذاءْ

هذه الحياة الرتيبه هى حقاً حياة الهم والإملاق ، مما لا يليق إلا بمن صار عبئاً على الحياة واستقبل بوجهه الموت . لأن الأصل فى السرور ، كما نفسره نحن فى مذهبنا الوجودى ، الشعور بتحقق ما بالمرء من إمكانيات ، وبأن المواقع التى استولينا عليها فى ميدان الوجود قد ازدادت فصرنا نسيطر على قدر وافر منها ؛ والهمّ مصدره الشعور بانحسار الوجود إلى دائرة ضيقة تتضاءل شيئاً فشيئاً كلما أخلد صاحبه إلى الأوضاع المتحجّرة وتعلق بأحوال تقدمه الراهنة ، ولم ينشد تجارب جديدة وأحوالا مختلفة طريفة . فالسرور إذن ينبع من فيض القوة ، وبالتالى هو شاهد ثراء ؛ والهم ينساب عن

تضاؤل فى تحقيق الممكن ، وبالتالى هو آية إملاق . فلنحاول إذن أن نتمثل الينابيع وهى تفيض من أعلى الجبال ، بدلا من الركود كالبرك الآسنة ، ولنأتمّ بهدْى القبّر الدائب الطيران الكثير التجديد مما يبعث فى نفسه الطرب والنشوة ، بدلا من الاقتداء بالبوم الجاثم فى الليل يائساً حزيناً فريسة للهموم والكروب :

الينابيع من الطود تفيضْ ؛
قُبّرٌ يسجع فى جوٍّ طروب ؛
كيف لا أشدو من الحلق العريض
معها ، أُنشِد من صدرى الرحيب ؟

أما أن يقال إن فى هذا سلوكا بالمرء نهج الغَرَر ؛ وإن الأمن غاية الإنسان ؛ وإن الطمأنينة هى حال فردوسنا المنشود ؛ وإن الاقتصار على ما هو كائن خير من الجرى وراء ما سيكونُ ، لأن ما فى اليد خير مما فى الغد ؛ أما هذا كله فسمٌّ زعاف أفسدنا بتجرعه نفوسَنا البكر ، فأحلناها إلى طفيليات على الحياة شاحبة واهنة ، وهو يمثل سُلّماً من القيم يرجع إليه كل إفساد للوجود ، وكل ما نعانيه فى الحياة من شقاء . ولهذا فنحن ننادى بأعلى صوتنا : لا طمأنينة ، بل قلقاً ؛ لا أمان ، بل خطراً ؛ لا حاضر واقعاً ، بل مستقبلا مجهولا ! أجل ، إنى لأعلم بماذا سيجيب العجزة المستضعفون ، هذه الجيف الحية اللاصقة بالطين : فهم سيقولون : من يدرى ! وما تدرى خير مما لست تدرى ! والمعلوم أفضل ألف مرة من المجهول ؛ وما حصّلت فعلا ، وإن يكن ضئيلا ، خير مما لم تحصّل

بعدُ وإن أمكن أن يكون وفيراً . هم يقولون هذا وأكثر منه مما يريدون به أن يقولوا إنهم قدروا أحوال المستقبل وعرفوها ، وتبينوا مصائر الأمور وقدروها ، فوجدوا الخير فى الرضى بما هو كائن ، وعدم الإفلات منه إلى ما سيكون ، مما لا ندرى من أمره بعد شيئاً . وهم قطعاً فى هذا واهمون : فمن ذا الذى يستطيع أن يعرف ما يأتى به الزمان الخلّاق من جديد باستمرار ؟ ومن ذا الذى فى وسعه الزعم بأن الإمكان يصح أن يدخل فى باب العلم ؟ إن كل علم هو علم بما كان ، لأن العلم تحصيل لواقع ، وإلا لم يكن علماً ؛ أما العلم بماسيكون من إمكان فتناقض فى الحدود وخُلْف عقلى فاضح . فلما كان الإمكان أكثر ثراء بما لا نهاية له من المرات من الواقع فالمجهول أفضل من المعلوم ، لأنه أعظم منه كيفاً ومقداراً . فعلينا إذن أن نتعلق بالمجهول ؛ ثائرين دائماً على كل معلوم ؛ ناشدين أبداً لكل جديد ؛ مطمئنين إلى الله مفوّضين إليه كل أمر ، وليس لدينا من شعور بإزاء هذا كله غير التسليم :

وليكُنْ لله تفويضُ الأمورْ ؛
فالذى يحفظ ينبوعاً وقَبْرْ
وحقولاً وسماء ، وبدورْ ،
لتشؤونى أيضاً الأحسنَ قَدّرْ

أجل ! قد يقال لك بعد هذا إنك مهما فعلت ، فلن تستطيع الخروج من وضعك الأصيل ؛ ومهما مررت بتجارب و حاولت التصاعد باستمرار ، فسترتد دائماً إلى مركزك الأول . فهذا الفتى

« الحائر البائر » سينتهى فعلا ، وبعد مراحل طويلة عانى بها ما عانى من أحداث وتقلبات ، بألا يحظى إلا بمن من أصله ومن تنتسب إلى طبقته ؛ فبعد أن كان يظن واهماً أنه سيظفر بالأميرة ، إذا به يظفر فعلا بهذه الأميرة المزعومة ، التى لم تكن فى الواقع غير ابنة أخ الحاجب . فقد يكون فى هذا درس وعبرة لمن يجرون وراء الأحلام العريضة بتنبيهم إلى أن الحياة لن تلبث أن تضعهم أمام خيبة أمل لا يبلغ مداها التعبير . وقد يكون المؤلف قد قصد إلى شىء من هذا . ولكننا نحن لا نريد أن نستخلص هذه النتيجة ، بل نقول على العكس من ذلك : على الرغم من كل هذا ، فلن نرضى بغير التعالى والتسامى فى معارج الحياة لنا غاية ، ولا نريد بهما بديلا ، ولا أن نسلك غيرهما سبيلا . لأن قيمة الحياة هى فى معاناة التجارب الحية نفسها ، لا فيما يمكن أن تفضى إليه من غاية . إذ الغاية نهاية ، والنهاية سكون ، والسكون موت وفناء ؛ ونحن نريد الحياة الدائبة السيلان ، المطّردة الغليان ، المتوثّبة فى كل آن . ولذا لا نريد أن نفهم من القصة ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن لأول وهلة منها وهو : الدعوة إلى الاقتصار على ما قسم لك فى بدء الحياة ، واعتقال نفسك فى الحدود التى رسمتها لك الطبيعة المزعومة منذ البدء . لأنك مهما حاولت فلن تظفر بشىء ولن تقدر على الخروج عما أنت فيه منذ البدء من أوضاع ورسوم وحدود . بل نفهمها على وَفْق ما قلناه وهو : الدعوة إلى التطور الدائم والقلق المستمر ، ونشدان التجارب الحية الجديدة ، وتنويع مداها

ومعناها ، ومعاناة أوفر قسط من المخاطر ، وتحقيق أكبر قدر من الإمكانيات بواسطة الأفعال ، مهما أدت إليه هذه من نتائج ، لأن العبرة بمعاناة التجربة لا بالنتيجة . فبهذا التفسير الملىء العميق يكون للقصة معنى ممتاز ؛ أما بالتفسير الأول فإنها ستكون مدعاة يأس وافتقار وهموم . ولسنا نظن المؤلف قد قصد إلى هذا ، وإلا وقع فى تناقض مع مستهل كلامه فى القصيدة التى أوردناها ، اللهم إلا أن يكون قد تاب عن الوهم الأول وتبين له فى النهاية أنه كان فريسة وهم . أما كيف نفسر انتهاء البطل بعدم الظفر إلا بمن فى طبقته ومن أصله ، بعد تفسيرنا نحن ؛ فإنا نقول إن المؤلف إنما قصد بهذا نوعاً من التهكم ، وإلى بيان سخرية الأقدار من فعل الإنسان ؛ وحرصه على التهكم هو الذى دفع به إلى أن يختم القصة بهذه الخاتمة المثيرة للقنوط . وأياً ما كان الأمر فى قصد المؤلف حقاً ، فإننا لا نريد أن نفهمها إلا وفقاً لتفسيرنا الثانى ، لأننا نريد منها أن تكون قوة دافعة بنا إلى نشدان الجديد فى الحياة باستمرار ، وإلى تحصيل الوفير من التجارب فى الدنيا على الدوام ؛ وأن تكون مثيرة لنا كى نسعى لتحقيق كل ما فى وسعنا أن نحققه مما بنا من إمكانيات ، حتى نظفر بأسمى قيم الوجود ، وننعم بأعلى ما يقدمه لنا البقاء ، فنحقق ، نحن القلقين المتوثبين الناشدين قيماً جديدة ، العاملين على خلق روح جديدة لحضارة جديدة ، من أبناء هذا الجيل ، أقصى ما قدر لنا بلوغه من مرامٍ وغايات ؟

ديسمبر سنة ١٩٤٢ — عبد الرحمن بدوى

من حياة حائر بائر

ليوسف فون ايشندورف

الفصل الأول

الرحى فى طاحونة أبى تطنّ وترن من جـديد فى حبور وسرور ؛ والبَرَد يسّاقط من السقف فى خفة ونشاط ؛ بينا العصافير تسقسق وتحوّم هنا وهناك ، فجلستُ على وصيد الباب ورحضتْ عن عينىّ النوم ؛ وشعرت بسرور طافح وأنا أستضحى للشمس الدافئة . وهنا خرج أبى من الدار — وكان منذ طلعة النهار يصخب فى الطاحونة — وقال لى ، وقبعته الليلية على شفا رأسه ، : « أيها الحائر البائر ! هذا أنت من جديد تتشمّس ، مادًّا عظامك تتمطّى تعباً ، وتدعنى وحدى أؤدى العمل كله . لا ، لم يَعُدْ فى وسعى بعدُ أن أعلفك . ها هوذا الربيع بالباب ؛ فاضرب إذن فى نواحى الأرض ، عساك أن تجد ما تتبلغ به » . فقلت : « هكذا ! أنا حائر بائر ، ليكن إذن ! وسأسعى فى مناكب الأرض كى أحصّل سعادتى » . وحقاً أثلج هذا صدرى ؛ إذ خطر ببالى منذ قليل أن أجوب الأصقاع ، يوم أن سمعت الصّعْو الأصفر ، الذى كان يغنى حزيناً فى الخريف والشتاء عند نافذتنا باستمرار ، هاتفاً : « يا فلاح استأجرنى ، يا فلاح استأجرنى» ! — أقول سمعته الآن فى الربيع الجميل يهتف من فوق الأفنان نخوراً طروباً : « يا فلاح ، احتفظ بشغلك لنفسك[1] » !

---

(١) هذه محاكاة لأصوات الطيور لذ للرومنتيك كثيرا أن يلجأوا اليها ، كى يدلوا بهذا على وحدة الطبيعة وتفاهم كل ما بها من كائنات . وهذا الطائر شبيه بالقبرة والحسون ، أصفر الرأس والعنق والصدر .

حينئذ دخلت الدار وأخذت كمانى ، وعليها أحسن العزف ، من الحائط ؛ وأعطانى أبى قليلا من الدراهم ، كى آخذها وإياى إبان الطريق ، ثم مشيت الخيزلى خلال القرية الطويلة . ورأيت فى كثير من السرور المستور إخوانى ومعارف الأقدمين يغدون يمنة ويسرة ويروحون ، يحفرون ويحرثون ، كما كانوا بالأمس واليوم قبله يفعلون ، بينا أنا أغدو هكذا إلى العالم الفسيح . فهتفت بهؤلاء المساكين فى كل ناحية هتاف الوداع وأنا راض تيّاه . ولكنهم لم يحفلوا بهذا الأمر كثيراً . أما أنا فشعرت كأنى فى عيد دائم . وما بلغت الحقول الواسعة ، حتى أمسكت بكمانى المحبوبة ، وعزفت وغنيت ، وأنا أسير على طول الطريق العام:

إنْ أراد الله إظهارَ رضاهْ
لفتًى ألقاه فى الكون يجولْ
كى يَرى أمجاده فيما براهْ :
جبلٍ ، نهرٍ ، وغابٍ ، وحقولْ

إنّ حِلْسَ البيت والكسْلى النيامْ
لن يروا فى الفجر أنداء الضياء
ليس يدرون سوى مهد الغلام
وهمومٍ وافتقــارٍ وغذاء

الينابيع من الطود تفيض ؛
قُبَّر يسجع فى جوٍّ طروب ؛

كيف لا أشدو من الحلق العريض
معها ، أنشد من صدرى الرحيب ؟

وليكن لله تفويضُ الأمور ؛
فالذى يحفظ يَنبوعا وقُبّرْ
وحقـــولا وسماء ، وبدورْ ،
لشئونى أيضاً الأحسنَ قدّرْ .

وبينا كنت أسرّح الطّـرْف ذات اليمين وذات اليسار ، مرّت إلى جوارى عربةُ سفرٍ فخمة ؛ لعلها كانت تسـير ورائى من زمن ، غير أنى لم أنتبه إليها ، لأن قلبى كان عامرا بالألحان . رأيتها تسير ببطء ، ورأيت سيدتين جليلتين تطلان برأسيهما خارجاً إنصاتاً لى ، إحداهما أروع جمالا وأحدث من الأخرى سنا ؛ ولـكنهما جميعاً قد أعجبانى حقاً . فلما توقفت عن الغناء أمرَتْ الـكبرى بالوقوف ، وقالت لى بصوت عذب فتّـان : « ها ، أيها الفتى المرح ، إنك تستطيع إنشاد أغانٍ عذبة » . فأجبتُ غير متوانٍ ولا زُمّـيْل : « إن شاءت عصمتك ، فإن لدى أجمل منها » . فسألتنى : « إلى أين ذاهب إذن ، فى مثل هذه الساعة من الصباح البـاكر ؟ » . فعلانى الخجل ، لأنى لم أكن أعرف ، أنا نفسى . ولـكنى قلت فى شىء من الجرأة : « إلى ڤينا » ! فتحدثت كلتاهما فيما بينهما بلغة غريبة لم أفهمها . أما الصغرى فقد هزت رأسها مرة أو اثنتين ، بينما كانت الأخرى

تضحك باستمرار ؛ ثم دعتنى هذه قائلة : « أقفز على المؤخِر ، فنحن ذاهبتان إلى ڤينا أيضاً » . من كان أسعد منى حينئذ ا انحنيتُ ؛ وبوثبة واحدة كنتُ فى مؤخِر العربة ؛ وقعقع الحوذىُّ سوطه ، وطِرْنا على الطريق المتألق بسرعة جعلت الريح تصفِر فى قبعتى .

ومن ورائى كانت القرى والحدائق وأبراج الكنائس تختفى وتغور ؛ وأمامى تظهر قرى جديدة وقصور وتلال ؛ وتحت ناظرى تجرى الحقول والخمائل والبرارى ؛ وأعلاى أسراب القُبَّر تحلّق فى الجو الأزرق الصافى . منعنى الخجل من الصياح ، ولكن قلبى كان يهتف بالسرور ؛ فرقصت وترنحت على مَرْقى العربة يميناً ويسارا ، حتى كنت على وشك فقدان كمانى المعلقة تحت إبطى .

وحين رأيت الشمسَ تصّاعد إلى كبد السماء ، وعلى جوانب الأفق تعلو سحْب الظهيرة الثقيلة البيضاء ؛ ورأيت كل ما فى الهواء والسهل المنبسط قد صار خالياً ثقيلا راكدا فوق حقول القمح المتماوجة ؛ حين رأيت هذا كله تذكرت قريتى ووالدى والطاحونة ؛ وكيف كان كلُّ شىء هناك عليلا بهيجاً ، كما تذكرت الربَّة ذاتَ الظلال ، وكيف صار كل هذا عنى بعيدا ، بعيدا . فأشاع هذا فى نفسى شعورا غريباً ، شعورا بوجوب العودة ؛ ولكنى أحكمت وثاق الكمان بين السُّترة والصُّدْرى ؛ واستلقيت على المَرْقى مليئاً بالأفكار والهموم ؛ ثم استولى علىَّ النعاس .

فلما فتحت عينىّ وجدت الحوذى واقفاً تحت شجر زيزفون باسق وراءه سُلّم واسع يقوم بين عَمَد فى قصر فخم . وخلال الأشجار كنتُ أرى عن عُرْضٍ أبراج ڤينا . ويبدو أن السيدتين قد غادرتا العربة منذ زمن ؛ إذ الخيول قد حُلت منها . فانتابنى فزع شديدٌ ؛ إذ وجدت نفسى هناك وحيدا ، وهُرِعت إلى القصر ؛ وحينئذ سمعت ضحكا من نافذةٍ أعلاى .

غريبة تلك الأحداث التى جرت لى فى هذا القصر ! بينا نظرت حولى فى البهو الأمامى الفسيح ، إذا بمن ينسأنى على كتفى بعصاً . فالتفتُّ سريعاً ، وإذا بى أمام رجل ضخم فى زى حفلات يتهدل من كتفيه حتى خاصرته حِمالة واسعة من الذهب والحرير ، وفى يده عصا ذات رأس فضية ، وعلى وجهه أنف أقنى طويل كلّ الطول كأنف الأمراء ؛ وقف كأنه الديك الرومى المنتفخ ، مهيب الطلعة ، فارع القوام ، وسألنى لماذا أنا هنا[1] . فاستولى علىّ الاضطراب ، وملكتنى الرّعدة والذهول حتى لم يكن فى مقدورى الجواب . وهنا كان كثير من الخدم يصعدون وينزلون ؛ فلم يقولوا شيئاً ، إلا أنهم سرّحوا فىّ أنظارهم عَلواً وسُفلا . ثم

---

(١) تأمل هذه الصورة المليئة بالسخرية والتهكم ، مما سترى منه الكثير خلال القصة كلها ، ومما هو خاصة من خصائص روح الرومانتك . ولكنها ليست صورة هدامة تهكمها يقضى على الشخصية كما هى الحال عند الرومنتيك الآخرين ، وبخاصة اشليجل ، بل هو تهكم رشيق ينحو ناحية الدعابة .

أنت من بعد وصيفة (كما عرفت فيما بعد) متجهة صوبى مباشرة وقالت : إننى فتى ظريف ، وعِنْصِمتها تسأل عما إذا كنت أود أن أشتغل هنا صبىّ بستانىٍّ . تحسست صُدَيْرِىّ ، فوجدت دريهماتى القليلة قد ضاعت ، ويعلم الله أنها لا بد وأن تكون قد قفزت من جيبى بينما كنت أتراقص على العربة ؛ فلم يكن لدى إذن غير كمانى ، فضلا عن أن الرجل ذا العصا أشار عابراً بأنه لن يعطينى درهماً واحداً . فقلت للوصيفة فى جزعٍ ولهفة : « نعم ! » . وكنت فى هذه الأثناء لا أزال أنظر عن عُرُضٍ إلى الوجه الـكالح الذى كان يذرُع البهو ذُهوباً وجَيْئة كبندول الساعة العتيقة ، وقد جاء الآن باهر الطلعة رهيباً من زاوية البهو الخلفية . وأخيراً جاء البستانى ، ودمدم فى لحيته بكلمات لعلها تدور حول الصعاليك والأشقياء ، وقادنى إلى البستان ، ملقياً إبان الطريق موعظة طويلة : موعظة تدور حول وجوب أن أكون الآن مثابراً قنوعاً ، وألا أمرح شريداً أو أشغل وقتى بأعمال لا نفع فيها ، وأشغال ليس بها غَناء ؛ فلعلىّ بمرور الزمان أن أنتهى إلى فعل شىء مفيد نافع ، وأن أفلِح فى شىء ذى قيمة وخير . وأردف هذا بدروس أُخرى ، بديعة ملائمة نافعة ، ولـكننى نسيتها كلها تقريباً منذ ذلك الحين . وعلى كلٍّ فلست أدرى حقاً كيف حدث ما حدث ؛ انما بقيت أجيب بقولى : « نعم ! » — لأنى شعرت ثمتئذ بأنى كالطير المبتلّ الجناح . ولـكننى صرت ، والحمد لله ، ميسور العيش .

الحياة فى البستان كانت جميلة هانئة . فقد كانت لى أكلة

ساخنة كلَّ نهار ، وكان معى من النقد أكثرُ مما كنت فى حاجة إليه من أجل النبيذ ؛ غير أنى كنت مرهقاً بالعمل الملحّ فى الإنجاز . آه ، لقد امتلأت نفسى سروراً بالمعابد والخمائل والمخارف الخضراء البديعة ؛ لولا أنه كان يعوزنى أن أرتاض بهدوء وأناقل الحديث ، كما يفعل السادة والسيدات الذين يَفِـدون إليها كل يوم[١] . ولا يكاد البستانى يغادر المـكان فأصبح وحيداً ، حتى آخذ غَلْـيون التبغ الصغير ، وأجلس مُطرق الرأس أفكر فى العبارات الرقيقة والـكلمات الطلية المهذبة التى أود أن أتحدث بها إلى السيدة الجميلة الشابة التى أتت بى إلى هذا القصر ، لوأننى كنت قرينها فى الرقص أو كنت أتمشّى معهـا هاهنا . وأحيانا كنت أرقد منبطحاً على ظهرى ، فى الأصائل الثقيلة ، حين يسود الصمت فلا يُسمَع غيرُ طنين النحل ، وأتأمل السحب الطائرة فى اتجاه قريتى ، والأعشابَ والأزهار وهى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، مفكراً فى السيدة[٢] ؛ وكثيراً ما حدث أن كانت السيدة المحبوبة

---

(١) يُسر الفتى بحياة البستان ، لأنها حياة شاعرة طبيعية تتفق ومزاجه الحالم الغارق فى حسن الطبيعة ؛ ولـكنه يتألم مع ذلك لأنه لا يستطيع النزهة مع حسنائه فى هذه الحديقة خلال المخارف كما يفعل أسياده . والصورة هنا حبة رائعة تثير فينا الابتسام الساخر لما فيها من صدق فى الشعور وقرب من واقع الحياة .

(٢) « السيدة » هنا بالمعنى الذى كان لهذا اللفظ فى العصور الوسطى ، وكما تغنى بها شداة الغرام (المنيزينجر أو التروبادور والتروفير) . وفى هذا نرى رائحـة العصور الوسطى تعبـق بهذه القصة ، كما تعبـق بكل ما هو رومنتيكى حقيق .

تمر على البعد خلال البستان حاملة قيثارة أو كتابا ، ساجية رائعة لطيفـة كالملاك ، حتى أنى لم أكن أعرف على وجه اليقين أحالم أنا أم يقظان .

وذات يومٍ كنت ماراً بأحدى الصّفاف وأنا فى طريق إلى عملى ، فغنّيت لنفسى :

حيثما سِرْتُ وللعين اجتلاء ،
فى حقولٍ أو بغابٍ أو بوادِ ،
ومن الطود إلى أعلى السماء ،
يا فتاة الحسن ، يا نبع الرُّواءْ ،
لك آلافُ تحيـاتِ الودادِ .

حينذاك رأيت عينين صافيتين فتيتين جميلتين تتألّقان بين شيش نافذة نصفَ مفتوحة ، وبين الأزهار القائمة فى الصّفاف الرطبة المظلمة . فارتمت مذهولا كل الارتياع ؛ ودلفت إلى عملى ، دون أن أتم إنشاد الأغنية .

وذات مساءٍ — وكان ذلك فى مساء السبت ، وأنا جالس أنتظر وامقاً يوم الأحد ، ومعى كمانى ، عند نافذة دار البستانى ، أفكر فى تلك العيون المتألقة — إذا بوصيفة تهرول نحوى خلال أشعة الأصيل : « إن سيدتى الجميلة تبعث إليك بهذا ، وعليك أن تشرب على صحتها ؛ كما تبعث إليك أيضاً بتحية المساء » . قالت هذا ووضعت زجاجة خمر على حافة النافذة ، وسرعان ما اختفت

بين الخمائل والأزهار كالعَظاءة[1] . .

بقيت زماناً طويلا أتأمل الزجاجة العجيبة ؛ ولم أدر ما جرى لى . وإذا كنت قبل هذا قد عزفت على الكمان فى طرب وحبور ، فقد رحت الآن ألهو وأغنّى . وأشدو بالأغنية الخاصة بالسيدة الحبيبة الجميلة حتى نهايتها ، بل وبكل الأغانى التى أعرفها ، حتى استيقظت كلُّ البلابل ، وتألّق القمرُ والنجوم طويلا فوق البستان . أجل ، لقد كانت ليلة فاتنة رائعة ! .

لا يُناغى المرء فى المهد بما سيكون عليه فى الغد ؛ الدجاجة العمياء تجد أحياناً حبة القمح ؛ ومن يضحك آخِراً ، يضحك خيراً ؛ كثيراً ما يحدث ما لم يكن قبل فى الحسبان ؛ العبد فى التفكير والرب فى التدبير — كرت هذه الخواطر بنفسى حينما جلست فى اليوم التالى ومعى غليونى فى البستان ، وقد بدوت لنفسى ، حينما تأملت بإمعان ، وكأننى شقىٌّ حقا . وكنت قد استيقظت ، على غير عادتى ، فى الصباح الباكر قبل البستانى وقبل أن يتحرك أحدٌ من بقية الفَعَلة . وكان الجو حينئذ كأبدع وأروع ما يكون فى البستان . فالأزهار والنافورة وأدغال الورد والحديقة كلها كانت تتألق فى الشمس البازغة كقلائد العقيان

(١) هى المعروفة عند العامة بالسحلية ، والجمع عَظاء وعِظاء وعظايا وعظايات . وهى حيوان زاحف ، صغير الحجم ، وإن كانت بعض أنواعه تبلغ الأمتار ؛ قصير الأرجل ، طويل الذيل . وهى قريبة الصلة بالأفاعى ، ولكنها تختلف عنها فى أن لها جفوناً وأن وسط جسمها مغطى بالتجاعيد .

ونفائس الجوهر . وفى مخارف الزان الطويلة ساد الصمت والجلال والرطوبة ، كما فى الكنيسة ؛ إنما كانت الطيور تحوّم وتُنَقِّر فى الرمل . وقُبالة القصر مباشرة ، تحت نوافذ الغرفة التى تقيم بها الحسناء ، قامت أيكة ذات أزهار . وإلى هنا كنت أغدو كلّ صباح وأختبئ تحت الغصون كيما أنظر إلى نوافذها ، لأنى لم أجرؤ على الظهور . هناك رأيت أجمل الحسان لا زالت دافئة يداعبها النعاس وقد تدثرت برداء أبيض بياض الثلج ، وبدت عند النافذة . وكانت حيناً تعقص شعرها الأسمر القاتم ، بينا عيناها المرحتان تسرحان فوق الأيك والبستان ؛ وحيناً آخر تقطف الأزهار النامية قُبالة نافذتها وترتبها على هيئة باقة أو إكليل ؛ أو تمسك بيديها الناصعتين الناعمتين قيثارتها ، وتغنى غناء يتردد فى البستان بعذوبة لاتزال تملأ قلبى أسى ، حتى الآن حين أذكر إحدى أغانيها — ولكن آه ، هيهات هيهات ، فقدكان ذلك فى غابر الأزمان[١] .

وعلى هذا النحو استمرت الحال أسبوعاً أو يزيد . ذلك أنى كنت ذات مرة على عادتى تحت نافذتها ، وكانت هى تطل منه فى تلك اللحظة وحولى قد سكن كلُّ شىء ، وإذا بذبابة مشئومة تدخل فى أنفى ، فبدأت أعطس عطساً لا يريد الانتهاء . فأطلّت

(١) وصف رائع لساعة الصباح حين تجعل الشمس كل شىء تعم عليه يرف فى وميض من النور الذهبى فيستحيل الى جواهر كريمة . تأمل خصوصاً الدقة فى تناول كل الجزئيات كما أثرت فى نفسه فى تلك اللحظة المعينة ، مما هو من شأن الفنان الممتاز وحده ، سواء أكان شاعراً أو رساما أو كاتبا .

بوضوح من الشباك ، ورأتنى ، أنا البائس المسكين ، خلف الخمائل . فبلغ منى الخجل مبلغاً لم أقو معه على العود لمدة أيام .

وأخيراً تجاسرت على العَود من جديد ؛ ولكن النافذة بقيت فى هذه المرة مغلقة ؛ ومضت أصباح خمسة أو ستة كنت أرقد إبانها تحت الخمائل ، ولكنها لم تظهر بعد ، وانقضى الزمان فى بطء وتوان ؛ فملكتنى الشجاعة وأقدمت تَبْت الجنان كل صباح جهاراً على طول واجهة القصر ماراً تحت كل نافذة . وعما قليل كنت أرى السيدة الأخرى مطلّة من النافذة ، ولم أك قد رأيتها من قبل بهذا الوضوح . أجل ، إنها كانت جميلة وردية ، بدينة ، ذات طلعة رائعة ، كأنها المعمّمة[1] . وكنت فى كل مرة أنحنى لها انحناءة عميقة ؛ ولا أنكر أنها كانت ترد على انحناءتى كل مرة ، وتنحنى فى لطف وجمال مشيرة بعينيها . ومرة واحدة خيّل إلىّ أنى رأيت الحسناء واقفة عند نافذتها مختفية وراء الستائر تخالس النظر .

ولكن أياماً انقضت دون أن أراها . فإنها لم تأت بعد إلى البستان ، ولم تبد فى النافذة كذلك . والبستانى هو الآخر قد انتهرنى قائلا إنى شقى كسول . فانتابتنى السآمة ، حتى كان طرف أنفى يعترض طريقى حين كنت أنظر فى عالم الله الفسيح .

---

(١) نوع من الأزهار من فصيلة الزنابق ، ذات أزهار بديعة . وتسمى بالأفرنجية « توليب » ، وهى كلمة مأخوذة من «تُلبَنْت» التركية أو «لُبند» الفارسية ، ومعناها فى اللغتين عمامة ، لذا ترجمناها بالمعممة .

وهكذا كنت مرة فى يوم أحد فى البستان ساعة الأصيل أنظر من علّيونى إلى السحب الزرقاء ، وضجرت من نفسى لأنى لم أختر عملا آخر ، حتى يكون فى مقدورى على الأقل أن أحظى بيوم حرٍّ من العمل . إن غيرى من الفتيان قد خرجوا للنزهة والسرور ، فى أقرب ضاحية ، مرتدين أفخر ثيابهم . وهناك يتنقل كل منهم ، متدثراً بثياب الأحد ، من مسرات إلى مسرات ، بين البيوت المضيئة والأرغن ، فى الهواء الدافئ الطليق . أما أنا فقد جلست مثل الواق ، فى أيكة راعٍ عند بحيرة منعزلة فى البستان ، وتأرجحت فى الزورق المشدود إلى الشاطئ ، بينا كان ناقوس المساء يسلسل من المدينة حتى البستان ، والبلشون تسبح رائحة غادية إلى جوارى . فشعرت بجزع كجزع الموت[1] .

وفى تلك الأثناء سمعت من بعيد خليطا من الأصوات والثرثرة البهجة والضحك : يقترب شيئاً فشيئا ؛ ثم أبصرت مناديل حمراء وبيضاء وقبعات ورياشاً ترفٍ خلال الخضرة . واقترب منى على

---

(١) أية براعة هنا فى إثارة الشعور بالحزن العذب بإشارة ضئيلة إلى قرع نواقيس المساء ! فى هذه اللمحات والإشارة البسيطة بعث لمنظر كامل ولما يحدثه فى النفس من أثر .

أما الواق فطائر « من فصيلة مالك الحزين طويل العنق والمنقار والرجلين والأصابع والأظافر ، قصير الزمكّى ، أصفر الريش مع رقشة وتوشيم . يحب العزلة . فيختفى فى النهار بين الأسل ويكثر الصياح فى الليل » (معجم الحيـوان ، لأمين معلوف ، ص ٣٥ ، طبع مصر ، المقتطف ، سنة ١٩٣٢) .

المرج حشد مرح من السادة والسيدات والشباب قادما من القصر. وبينهم سيدتاى . فنادتنى كبرى السيدتين الحسناوين ، حين كنت أهُـمّ بالوقوف ومغادرة المـكان ، وقالت لى وعلى فمها ابتسامة : « أها ، كأنه الشخص المدعو[١] ؛ جَـدّف بنا عبر البحيرة » . ونزلت السيدات الواحدة تلو الأخرى بعناية وشىء من الحذر المالغ فى الزورق ، يساعدهن السادة مظهرين شيئا من الخُـيَلاء بجرأتهم على سطح الماء[٢] . ولما استقر المجلس بالسيدات على المقاعد الجانبية أقلعت من الشاطئ . ولـكن أحد السادة الشباب الذى كان واقفا عند مقدّم الزورق بدأ يهزه دون أن يلاحظه أحد ما . فتلفتت السيدات يمنة ويسرة جزعات خائفات ، بل صرخ بعضهن . أما الحسناء فكانت تحمل فى يدها زنبقة ، وقد جلست فى ثبات فى أحد جانبى الزورق ، باسمة تنظر إلى الماء الصافى الذى كانت تحركه بالزنبقة ، حتى أن صورتها كلها كانت بادية ترى بين السحب المنعكسة هى والأشجار فى الماء ، كأنها ملاك يتحرك خلال بساط السماء الأزرق .

وبينا كنت أنظر إليها طويلا ، خطر ببال السيدة البدينة المرحة من بين سيدتىّ أن تطلب إلىّ أن أغنيهم طوال العبور .

---

(١) أى ها هو ذا الرجل الذى نحن فى حاجة إليه الساعة !

(٢) لا حظ أنه لا يترك الأشخاص دون أن ينعتهم بصفات تدل عليهم أوضح دلالة ؛ وتلك أمارة الفن الرفيع . إذ المقصود من الفن إبراز الصور للعيان ، ولن يتحقق هذا بذكر الأسماء المجردة ، إنما يتم باضافة نعوت مميزة إليها .

وسرعان ما التفت إليها شاب أنيق كل الأناقة يحمل منظاراً على أنفه ، وقد جلس إلى جوارها ، فقبل يدها بلطف وقال : أشكر لك اقتراحك البديع ! إن أغنية شعبية تنشد فى المروج والغابات لهى كالوردة الألبية على جبال الألب نفسها — إن مجاميع[1] الأغانى نباتات محنطة — إن أغنية شعبية تغنى على هذا النحو لهى روح الروح القومية » . ولكنى أجبت قائلا إنى لا أعرف من الأناشيد ما يليق بمثل هذه الجماعة الممتازة . وهنا قالت الوصيفة اللعوب الماكرة ، وكانت تحمل سلة مليئة بالطاسات والزجاجات وهى واقفة إلى جوارى دون أن أنتبه إليها حتى هذه اللحظة : « إنه ليعرف أغنيــة عذبة حقا ، أغنية تدور حول حسناء رائعة الجمال » . فصاحت السيدة فى الحال : « نعم ، نعم ، غنّ هــذه الأغنية وتشجع » . فتضرّج خدى من الخجل ؛ وهنا رفعت سيدتى الحسناء بصرها من الماء ورمقتنى بنظرة نفذت إلى قلبى وروحى وبدنى[2] . فلم أتردد بعد طويلا ، بل تشجعت وغنيت مسرورا :

١ . . بحيثما سرت وللعين اجتلاء ،

---

(١) يشير ايشندورف هنا إلى مجموعة الأغانى الشعبية الألمانية التى قام بجمعها اثنان من أصدقائه هما أرنم وبرنتانو ونشراها بعنوان : « القرن السحرى للغلام » (فى ٣ أجزاء سنة ١٩٠٦ — سنة ١٨٠٨) . وكان لها أثر كبير فى فتح أبواب الشعر الشعبى لعدد كبير من الناس ، أثر لا يزال حيا حتى اليوم .

(٢) تنبه إلى هذه القسمات الناطقة بصمتها نطقاً ينفذ المؤلف كله .

فى حقول أو بغـاب أو بواد ،
ومن الطود إلى السهل الفضاء ،
يا فتـاة الحسن ، يا نبع الرواء
لك آلاف تحيـات الوداد

إن فى روضى من الزهر عديدا
كله حسن وسحر وفتون
وبه أنظم إكليــلا نضيدا
فيه أودعت من الفكر عقودا
وتحيـات إليها كل حين

وإلى إيصاله ما من سبيل ؛
إنها أرفع ، قد فاقت جمالا .
ليس فى مقدوره إلا الذبول
بينما حبى ، من دون مثيل ،
ثابت فى القلب لا يبغى ارتحالا

وإذا كنت أرى طلق المحيّا
مصبحاً أعمل أو ساعة أمسى
وسواء مزّق القلب سنويا
فأنا أحفر فى شدو مليا
ولنفسى ، بعدها ، أحفر رمسى

ثم وصلنا إلى الشاطئ ، ونزلت الجماعة ؛ وكنتُ ألاحظ أثناء إنشادى أن فريقا من السادة الفتيان كان يسخر منى لدى السيدات بنظرات ماكرة وهمسات خبيثة . أما السيد ذو المنظار ، فقد هزّ على يدى حين غادر الزورق وقال شيئا ، ليس فى وسعى بعدُ تذكره ، بينا رمقتنى كبرى سيدتىّ بنظرة وامقة . ولكن الصغرى لم ترفع عينيها إبان غنائى[1] ؛ ومضت دون أن تقول كلمة . غير أن الدموع كانت تترقرق فى عيونى حين كنت أغنى ؛ وكاد قلبى أن يتمزق نشيداً من شدة الخجل والألم . وحينئذ تبينت ، لأول مرة ، كلّ شيء — كيف أنها رائعة الجمال وأنا بائس ممتهن وحيد ، — وحين غابوا جميعا خلف الأدغال والخمائل ، لم يعد لى قِبَل بهذا كله ، فألقيت بنفسى على العشب ، وبكيت بدموع مُرة غزار .

الفصل الثانى

الطريق العام يمر مصاقبا لبستان الإقطاعية ، لا يفصل بينهما غير جدار شامخ. وهناك يقوم مكتب مكُوس متواضع ذو سقف من الطوب الأحمر ؛ ووراءه روضة أزهار صغيرة ذات سياج

(١) هـذا الإغضاء هو عينه أول دلائل الحب المتمكن من النفس دون أن يتمكن من الإفصاح ! وقد قصد إليه المؤلف هنا قصداً ، لكى يزيد فى مشقة الوصال ، وبالتالى ، فى الشوق والتشويق .

متعدد الألوان ، يصل إليها المرء بسهولة عن طريق حجر فى سور بستان القصر ، قريب من أشد أجزاء البستان ظلالا واختفاء . وكان الموظف الذى يعيش ويعمل فيه قد توفى منذ قليل . وذات صباح ، بينا كنت لا أزال — فى ساعة مبكرة جدا — مستسلما للنوم ، جاءنى كاتب القصر ، وطلب إلىّ أن أذهب توًّا إلى مشرف الإقطاع . فلبست ردائى سريعا ، ومشيت الخيزلى وراء الكاتب المرح الذى كان يقطف أزهارا طوال الطريق ويضمها فى مقدم سترته حينا ، وحينا آخر يلعب بعصاه ببراعة فى الهواء ، وهو ينثر علىّ مختلف الأحاديث ، التى لم أفهم منها شيئا ، لأن عيونى وآذانى كانت لا تزال مليئة بالنعاس . فلما ذهبت إلى المكتب ، الذى لم يكن قد نفذ إليه نور النهار بعد ، نظر إلىّ مشرف الإقطاع من خلف محبرة ضخمة وأكوام من الأوراق والكتب ، وشعر مستعار يستهوى النظر ، كبومة تطل من عشها ، وراح يقول : « ما اسمك ؟ ومن أين أتيت ؟ وهل تعرف القراءة والكتابة والحساب ؟ » ، فلما أجبت بالإيجاب أضاف : « حسنا ؛ إن أصحاب السيادة يطلبون إليك أن تشغل وظيفة محصّل المكوس ، نظرا لحسن سلوكك ومزاياك الخاصة » . ففكرت سريعا فى مسلكى الماضى وعاداتى ، وفى وسعى أن أوافقهم على هذا الرأى ، وأقول إن فكرة المشرف عنى كانت صائبة . وهكذا ، وقبل أن أستطيع الإلتفات ، أصبحت محصل مكوس .

وسرعان ما شغلت مسكني الجديد ، وبعد قليل من الزمن استقر بي هناك المقام . فوجدت في البدء أن المحصل المتوفى قد خلف وراءه كثيراً من الأدوات لمن سيخلفه ، ومن بينها مِبْذلة فخمة حمراء ذات نقط صفراء ، وزوج من النعال المنزلية الخضراء وكثير من النارجيلات ذوات القصبات الطوال . وهذه أشياء كنت أتوق دائماً إلى الحصول عليها حين كنت في قريتنا أرى قسيسنا يغدو بها وسيما أنيقاً . فبقيت طوال النهار (إذ لم يكن لدى عمل آخر) جالساً على المقعد القائم أمام منزلى وأنا في مِبْذلتي وعلى رأسي قبعة ليلية ، أدخن التبغ في أطول نارجيلة خلفها سلفي وأتأمل الناس سائرين وراكبين على الطريق العام . ولم يكن لى ثمة رغبة إلا في أن أرى نفراً من أهل قريتي — ممن كانوا يقولون لى دائماً إننى لن أفلح مطلقاً في شيء — يمرون بي هنا ويرونني . وقد كان لون المبذلة هو اللون الملائم لى تمام الملاءمة ، وعلى العموم كان كل شيء مناسباً لى كل المناسبة . وعلى هذا النحو جلست هناك أفكر في كثير من المسائل ، قائلا لنفسى إن البدء دائماً صعب ، وإن حياة أكثر رفاهية لهي شيء مريح حقا ، وصممت في نفسي ألا أتجول بعد ، بل أقتصد من نقودى كما يفعل الآخرون ، ومع مر الزمان أكوّن لنفسى ، اسماً بين الناس . ولكن على الرغم من أنى كنت دائم التفكير في عزائمي ومشاغلي وهمومي ، فإننى لم أنس لحظة سيدتى الرائعة الجمال .

وانتزعت البطاطس وغيرها من البقول التى وجدتها بحديقتى

الصغيرة وقذفت بها بعيداً ، ولم أغرس مكانها إلا كل أنيق من الأزهار مختار ، مما جعل حاجب القصر ، ذا الأنف الطويلة الأميرية — وقد صار كثيراً ما يأتى إلى ليرانى منذ أن سكنت هنا حتى أصبح لى الآن صديقاً مخلصاً — أقول إن هـذا مما جعله ينظر إلىّ عن عرْض وكأنه ينظر إلى شخص أطار الحظ المفاجئ لُبّه[1] . ولـكنى لم أحفل بهذا كثيراً . لأنى سمعت غير بعيد منى فى بستان الإقطاعية أصواتاً من بينها صوت اعتقدت أنه صوت سـيدتى الحسناء ، على الرغم من أنى لم أستطع أن أرى أحداً ، نظراً إلى كثافة الأدغال . ولذا كنت أقطف كل يوم باقة من أروع أزهارى ، وأرقى السور كل ليلة حين يخيّم الظلام ، وأضعها فى منتصف منضدة حجرية تقوم فى إحدى الخمائل ؛ وفى كل مساء آتى فيه بالباقة الجديدة ، أجد القديمة قد أُخِـذت .

وذات مساء ذهبت الجماعة للصيد ؛ وكانت الشمس قد غربت منذ لحظات ، ناشرة البريق والبهاء على كل الريف ، ونهر الدانوب ينساب كالحية فى روعة وجلال وكأنه استحال ذهباً وناراً فى الأفق البعيـد ، ومن جميع التلال النامية خلال الريف تداعى الـكرامون ، وهم بالأناشيد يشدون . فجلست على المقعد مع الحاجب

(١) تأمّـل هذه القسمة البديعة فى خلق هذا الرومنتيكى الحالم الذى ينفض النافع ويستبدل به الجميل ؛ فى مقابل ذلك الحاجب العالق بالطين كبقية الناس ممن يضحون بكل جميل فى سبيل أتفه نفع . وتنبه إلى طريقة المؤلف هنا وفى كل مكان ، من إيراد المتقابلات ، واستخدام التقابل كأداة خصبة فعّالة فى روعة التعبير .

أمام منزلى ، وتملّيت بالهواء الدافئ والإظلام المتدرّج وزوال النهار السعيد فى بطء وتراخ . وهنا سمعت أبواق الصائدين العائدين من بعيد ، يجاوب بعضهم بعضاً من التلال المتقابلة . فرقص قلبى طربا ، ووثبت نشوان مخلوب اللب وصحت : « آه ! إن هذه هى مهنتى ، الصيد النبيل ! » ولكن البواب فرغ غليونه بسكون وقال : « هذا ما تظنه أنت . لقد شاركت فيها ؛ ولكن المرء لا يكاد يحصل على ثمن الأحذية التى يلبسها إبان الصيد ، ولا يمكن أن يخلو من السُّعال والبرد نظراً لبُلال أثوابه باستمرار » . ولكنى ، لسبب لا أدريه ، استولى على غضب أهوج ، وأصابتنى رِعْدَة فى كل إعضائى . وبدا لى هذا الرجل ، بردائه المملول وأقدامه الخالدة ، وزكامه من التبغ ، وأنفه الهائلة ، بدا لى كل هذا بغيضاً مريعاً . فأمسكت به من سترته ، وقد خرجت عن طورى وقلت له : « أيها الحاجب ! عُد إلى المنزل ، وإلا أهويت عليك بالضربات فى الحال ! » فلما قلت هذه الكلمات آب الحاجب إلى رأيه القديم ، ألا وهو أنى مجنون . وظل يتأملنى مُفْكراً يغزوه خوف مستور ، ثم مضى دون أن ينبس بكلمة ، وسلك سبيله ، وهو ينظر إلىّ خلسة ، بخطوات سريعة متباعدة نحو القصر ، حيث أعلن وهو يلهث أنى صرت مجنوناً تمام الجنون[١] .

---

(١) هذا الوصف للصلة ما بين الحاجب وهذا الحائر البائر رائع ، لأن ابيان هذا التعارض بين طبيعتى الرجلين ، وهذا التناقض المستمر بينهما ، أثر أكبيراً فى مخرج القصة ، إذ ستنتهى بأن يتزوج هذا الحائر البائر بابنة =

لـكن كان لا مندوحة لى عن الضحك فى النهاية . وسررت كل السرور بتخلصى من رفيقى المـاكر المخيف ، لأن ذلك كان الوقت الذى اعتدت فيه أن أضع باقة أزهارى فى الخـميلة . فوثبت بسرعة على السور ، كما هى عادتى ؛ وكنت فى طريقى إلى المنضدة الحجرية حين سمعت من مسافة قصيرة كَدَفة خيول . ولـكن فات الوقت للفرار ، لأن سـيدتى الحسناء هى بعينها قد جاءت راكبة ببطء تسير على المشى مطرقة تفـكر ، كما يبدو لى ، تفـكيراً عميقاً ؛ وكانت مرتدية ثوباً أخضر وفى قبعتها ريش مائل . وشعورى حينئذ كان بعينه شعورى عادة حين كنت أنظر فى الـكتب القديمة فى بيتنا إلى صور مچلونه[1] الجميلة ، وأنا أراها الآن سائرة بين موسيقى أبواق الصيادين التى كانت تقترب شيئاً فشيئاً ، وفى

= أخ الحاجب ، وهى سيدته الحسناء التى يستمر حتى النهاية بحسبها أميرة ؛ فمن شأن هذه الخصومة بينهما أن تزيد فى تعقيد الأمر بين الحاجب وبين هذا الحائر البائس ؛ ومن شأن الزواج على الرغم من التنافر أن يوضح سخرية القدر أكثر وأكثر . فطابع السخرية الرومنتيكية ظاهر هنا كما فى كل مكان ، وهى هنا هدامة إلى أقصى حد .

والواقع أن من الواجب أن يعدّ الحاجب البطل الثانى للقصة ، بعد هذا الحائر البائس .

(١) مچلونه هذه شخصية اسطورية ، بطلة لـكتاب شعبى ألمانى منتشر ، نشره ڤـيت ڤاربك سنة ١٥٣٦ بعنوان : « مچلونة الجميلة » . وخلاصة هـذه الأسطورة أن فتاة اسمها مچلونة ، ابنة أحد ملوك نابلى ، كانت مشهورة بجمالها ؛ وبعد كثير من المغامرات والأحداث ، استطاعت التزوج من حبيبها بيترو ، ابن دوق پروڤنتسه . ويقال إنهما دفنا سوياً فى الجزيرة المسماة باسم مچلونة .

هذا المساء المتغير الضوء تحت ظلال الأشجار الباسقة — حتى وقفت وكأنى سمّرت بالمكان .

ومنذ ذلك المساء لم أعد أعرف للراحة ولا للأمن مذاقاً . لقد شعرت بما أشعر به عادة فى مستهل الربيع : قلق وسعادة ، دون أن أدرى ما السبب ، وكأن حادثا فذاً أو سعادة عظمى تنتظرنى . فمسك الحساب خصوصاً ، هذا الشيء البغيض ، لم أعد أقوم به كما يجب ؛ وحين كانت الشمس المتألقة تهبط من خلال أشجار الكستنا حتى النافذة على الأعداد والأرقام ، وأنا أجمع متنقلا بسرعة من « المحوّل » إلى « المجموع الكلى » ، كانت تستولى علىّ أفكار غريبة ، حتى أنى كنت فى غالب الأحيان فى حالة ذهول ، وغير قادر حقاً على العد حتى الرقم ٣ . فالعدد 8 كان يبدو لى مشابهاً لسيدتى البدينة المكتنزة بقبعتها العريضة ؛ والرقم الخبيث 7 كان مثل صُوى طريق يشير إلى الخلف باستمرار ، أو كالقصلة . بينما الرقم 9 كان يضحكنى إلى أقصى حد ، منقلباً إلى الرقم 6 حين لا أكون منتبهاً ، بينما العدد 2 يبدو كعلامة استفهام ماكر ، وكأنه يريد أن يسألنى : « ماذا سيؤول إليه أمرك ، أيها الشقى المسكين ؟ بدونها ، أىْ هذا الرقم الضاوى 1 ستكون صفراً باستمرار ! » .

ثم لم أعد أجد لذة بعد فى الجلوس أمام الباب ، وحاولت الزيادة فى الراحة ، فأخذت مقعدا وطيئا ووضعت قدمى عليه ، وأصلحت مظلة قديمة ، مما خلفه سلفى ، ونشرتها أعلاى فى

مواجهة الشمس ، كالجوسق الصينى . ولـكن هذا كله لم يجدِ فتيلا . وتراءى لى ، حين جلست هناك ودخنت وتأملت ، أن سيقانى قد استطالت من الملال ، وازدادت أننى طولا حين كنت أجلس طوال ساعات لا أعمل فيها شيئا غير النظر إليها سُفْلا . وأحيانا كانت تمر بى قبل الفجر عربة مسافرين ، فأذهب إلى الهواء المنعش وأنا لا أزال نصف نائم ، وإذا بوجه لطيف صغير ، لا يبدو منه فى شعاع الفجر غير العيون المتألقة ، ينحنى برشاقة خارج العربة ويحيى برقة تحية الصباح . ومن القرى المجاورة تزقو الديكة بانتعاش خلال حقول القمح المتماوجة قليلا ، وها هو سرب من القُبّر المبكر اليقظة ، قد هب يستقبل أشعة الصباح فى عالى السماء ، والحوذى قد أمسـك بالبوق ومضى فى سيره نافخا فيه باستمرار — حينئذ أظل مليا أنظر إلى العربة ، وأشعر بأنى لا بد أن أرحل حالا — أرحل جائبا فى العالم الفسيح .

وإبان هذا كله كنت على عادتى حين مغيب الشمس أضع باقة أزهارى على المنضدة الحجرية فى الخميلة الظلماء . ولـكنْ هنا كان مصدر الاضطراب : فمنذ ذلك المساء انتهى كل شىء ؛ فلم يحفل بى بعدُ أحد . فكنت حين أذهب بعد فى الصباح أجد الأزهار باقية هناك لم يأخذها إنسان ؛ أجدها تنظر إلىّ حزينة متمايلة الـكأس الذابلة ، وعليها قطرات الندى تبدّى كالدموع . فأحزننى هذا كل الحزن ، ولم أعد أنظم بعدُ باقات . فللأعشاب إذن أن تنمو فى حديقتى ما وسعها النمـاء ؛ وها هى ذى الأزهار

قائمة هناك تنمو وتمعن فى النمو ، حتى تذرو الرياح نَوْرِيّاتها .
آه ! لم يبق فى قلبى غير الوحشة والقلق والاضطراب .

وفى هذه اللحظة الحاسمة الحرجة ، حدث ذات يوم حينما كنت مستنداً إلى النافذة فى بيتى أتأمل ساهماً غير راضٍ فى الفراغ الفسيح ، أن جاءت الوصيفة من القصر تخطر على طول الطريق . فلما رأتنى أسرعت إلىّ وقالت : « إن السيد قد عاد بالأمس من رحلاته» . « حقاً ؟ » هكذا سألتها ، مدهوشاً ، لأنى لم أكترث لشىء منذ أسابيع ولم أعرف حتى أنه كان غائبا — « لا بد وأن يكون هذا مصدر سرور عظيم للسيدة الصغرى ، ابنته » ، فنظرت إلى الوصيفة من أعلى الرأس إلى أخمص القدم باستغراب ، حتى بدأت أفكر فيما إذا كنت قد قلت شيئاً غير لائق : « إنك لا تدرى شيئاً عنها » . هكذا قالت فى النهاية ، مديرة أنفها الصغير . ثم أضافت : « والآن اسمع ! فى هذا المساء ستقام حفلة رقص وتقنُّع هزلى فى القصر ، احتفالا بمقدم السيد . وسيدتى ستلبس أيضاً ملابس خيالية ، وستكون فى زى بائعة أزهار — فاهم ؟ — بائعة أزهار . وهى قد لاحظت أنك تملك فى حديقتك أزهاراً بديعة جداً » — هذا غريب ! هكذا قلت لنفسى ، لأنه لا يكاد يوجد بها أزهار بسبب الأعشاب . ولكنها استرسلت : « ولما كانت سيدتى راغبة فى أزهار جميلة من أجل ثيابها ، أزهار نضرة ، مقطوفة حالا ، فإنها تريد منك أن تأتى لها ببعض منها فى هذا المساء ، بعد المغيب ، وتنتظر

بها تحت شجرة الـكمثرى الباسقة فى بستان القصر ، وستأتى إلى هناك لأخذها » .

ففاضت نفسى سروراً حين سمعت هذه الأخبار ؛ ولفرط غبطتى وانتشائى خرجت من النافذة إلى الوصيفة . « أف ! ما هذه المبذلة الحقيرة ! » هكذا صاحت ، حين رأتنى خارج المنزل فى هذا الملبس . فأثار هذا حفيظتى ؛ غير أنى لم أشأ التخلف عن المغازلة ، فقمت ببضع حركات والتفاتات كى ألحق بها وأحظى منها بقبلة . ولـكن أقدامى لسوء الحظ اشتبكت فى المبذلة وتعثرت ، لأنها كانت طويلة جداً على . فانبطحت بطولى على الأرض . وفى الوقت الذى حاولت فيه النهوض بنفسى ، كانت الوصيفة قد ابتعدت عنى طويلا ، وسمعتها من بعيد مستغرقة فى الضحك حتى لاذت بكشْحَيْها .

وهنا كان لدى ما أفـكر فيه وأغتبط به . إنها لا تزال تفكر فىّ وفى أزهارى ! فمضيت فى التو إلى حديقتى واقتلعت بسرعة كل الأعشاب من الأرض وقذفت بها عالياً فى الهواء الرفاف ، وكأنى أقتلع من الجذور كل ما فى العالم من أحزان وشرور . أما الورود فقد كانت تحاكى فمها ، والسُّيَيسنات الزرقاء زرقة السماء كعينيها ، والزنبقة البيضاء بياض الثلج تشابها تمام المشابهة برأسها الحزينة المـائلة . فوضعتها كلها فى السلة بعناية . وكان المساء ساجياً رقيقاً وليس بالسماء سحاب ؛ وفى أديم السماء تألقت حينئـذ نجمتان براقتان ؛ وهدير الدانوب يسمع من بعيد عِـبْر الحقول ، وفى الأشجار الباسقة فى بستان القصر إلى جوارى كانت مئات الطيور

تغنى فى طرب . آه ! كم كنت سعيداً !

وما جَنَّ الليل حتى حملت السلة على ذراعى ، وأخذت سبيلى إلى البستان الكبير . وكان فى السلة خليط براق من أزهار عديدة الألوان ، أبيض وأحمر وأزرق ، فاغمة العطر ؛ حتى أن قلبى شدا حين نظرت إليه . فسرت مفعما بالأفكار السارة تحت ضوء القمر الحبيب على طول المخارف الساجية المفروشة بالرمال ، وفوق الجسر الأبيض الصغير ترقد تحته جماعة البلشون النائمة . وسرعان ما عثرت بشجرة الكمثرى الباسقة ، لأنها كانت تلك التى كنت ، وأنا صبى بستانى ، أرقد تحتها فى الأصائل الثقيلة .

هنا كان ظلام ووحشة . فالصمت قد خيم إلا حوراً هزازاً يحرك أوراقه الفضية ويدمدم باستمرار . وبين الحين والحين كان فى وسعى أن أصغى إلى موسيقى الرقص وهى آتية من القصر . وبين الفينة والفينة كنت أسمع أصواتاً إنسانية فى البستان ، وكثيراً ما كانت تقترب منى كل القرب ؛ ثم تنقطع فجأة ويستأنف السكون سلطانه .

خفق قلبى . وشعرت بنفسى غريباً مذعوراً ، وكأنى قصدت إلى سرقة شىء . فبقيت طويلا ساكناً لا أبدى حراكا ، مستنداً إلى جذع شجرة ، مرهفاً سمعى فى كل ناحية ؛ ولكن حين لم يأت أحد ، لم يعد لى قِبَلٌ باحتمال هذا . فعلقت سلتى على ذراعى ، وتسلقت شجرة الكمثرى ، كى أتنفس هواء منعشاً من جديد .

وإلى هناك كانت موسيقى الرقص تصل مرحة رفافة حتى أعالى

الشجرة . وكان فى وسعى حينئذ أن أنفُض البستان بأسره ، وأن أتبين جيداً داخل الغرف المضيئة فى القصر . فالمسارج تدور ببطء كباقات النجوم ، وعدد وافر من السيدات والسادة المتدثرين بأفخر الثياب يسبحون ويدورون ويتمازجون فى خليط مرح ، وكأنهم صور فى ملهى أشباح . وأحياناً كانوا يأتون إلى النوافذ وينظرون منها إلى البستان . وأمام واجهة القصر كانت الحشائش والخمائل والأشجار تبدو مموّهة بالذهب بما عكسته الأنوار العديدة فى الحجرات ، حتى استيقظت الأزهار والطيور من جديد . وبعيداً عنى ومن خلفى قبع البستان حولى فى ظلام وسكون .

فقلت لنفسى وأنا فى ذرى الشجرة : إنها ترقص هناك الآن ، وقد نسيت من زمن طويل كل شىء عنك وعن أزهارك . إنهم جميعاً سعداء ؛ وليس من بينهم من يحفل بأمرك — وهذا ما يحدث لى دائماً وفى كل مكان . فلكلٍ ركنه الصغير ، وموقده الدافئ وقدحه من القهوة ، وزوجته ، وكأسه من النبيذ فى المساء ؛ وهو راضٍ ، بل البواب نفسه سعيد على طريقته الخاصة — أما أنا فلست سعيداً فى أى مركز أو مكان . آه ! لكأنى أتيت فى كل مكان متأخراً ؛ ولكأن العالم بأسره لم يعمل حساباً لوجودى[٢] .

---

(١) هنا يتجلى لنا الحنين الرومنتيكى فى أظهر صورة وأروعها ؛ هنا تعبير واضح دقيق عن شقاء الضمير الذى يشعر به كل من هؤلاء الرومنتيكيين ، لأنهم يترجحون بين حلم يدعوهم إلى السعادة الكلية الخالصة ، وبين واقع يصطدمون به فى كل شىء يلقونه فى الحياة ، مما من شأنه أن يولد =

وبينا كنت جالساً أتفلسف على هذا النحو ، سمعت فجأة زفيف شيء بين الأعشاب ، وصوتين يتهامسان بالقرب مني . ثم انقشعت أغصان الخميلة عن وجه الوصيفة الصغير من خلال الأوراق ؛ وهو يدور في كل اتجاه . وفي عينيها الماكرتين ضوء القمر يتألق بوضوح وهي ترى ببصرها . فأمسكت نَفَسي ورنوت بنظرة ثابتة إلى أسفل . وما كان لي أن أنتظر طويلا حتى تأتي بائعة الورد من بين الأشجار ؛ متدثرة على النحو الذي شرحته لي وصيفتها . كاد قلبي يتمزق . ولكنها كانت لابسة قناعاً ، وبدا لي أنها تنظر حواليها باستغراب — كما بدت على نحو ما غير ضاوية نحيلة ، ولا لطيفة رقيقة . وأخيراً أتت إلى جوار الشجرة مباشرة ونزعت قناعها — فكانت الأخرى ، السيدة الكبرى !

آه . كم سرني ، حين استعدت نفسي بعد الهزة الأولى ، أن أكون في العلو هكذا في أمان . قلت لنفسي : كيف ، ولماذا أتت هنا في هذه اللحظة بالذات ؟ سيكون الأمر إذن شائقاً حين تأتي سيدتي الحسناء من أجل أزهارها ! وكدت أصرخ غضباً وحنقاً على هذه القصة كلها .

لكن بائعة الورد أنشأت تتكلم : « إن داخل القصر خانق بحرارته . وكان على أن أخرج وأتنفس النسيم المنعش البليل » .

= في الضمير عرما كاً باطنا وتمزقاً داخليا . ولاحظ خصوصا قوله المؤثر : « وكأن العالم بأسره لم يعمل حسابا لوجودي » ! أي أسف ساخر في هذا القول !

وإبان كلامها ، كانت تروّح على نفسها بقناعها باستمرار ، وتَـنْحنِـم بشدة . وعلى ضوء القمر الساطع كان فى وسعى أن أرى بوضوح عضلات رقبتها شديدة الانتفاخ ، وبدت مغضبة أشد الغضب ، ووجهها أحمر كالقرميد . كل هذا بينا كانت الوصيفة تبحث وتفتش حواليها كمن فقد إبرة .

« لا بد لى من أزهار ناضرة من أجل قناعى » . هكذا بدأت بائعـة الأزهار تقول : « وإنى لأدهش أين يمكن أن يكون ! » . فذهبت الوصيفة تبحث من جديد وهى تبتسم فى خفاء — « هل قلت شيئاً ، روزتّه » هكذا سألتها بائعة الأزهار بحدة — « إننى أقول ما قلته من قبل مراراً » ، بهذا أجابت الوصيفة ، وعلى وجهها سيما الجد والبراءة ، « إن محصل المـكوس هـذا جافى الطبع ، وسيظل كذلك باستمرار ؛ وهو بلا شك راقد وراء أيكة فى مكان ما » .

فارتعدت فرائصى كلها رغبة فى النزول كى أدافع عن سمعتى ، غير أنى سمعت ضجة شديدة اختلطت فيها أصوات الطبول والموسيقى والصياح فى القصر .

وهنا لم تستطع بائعة الأزهار الانتظار بعد . فقالت متجهمة : « إنهم يشربون على صحة السـيدة ؛ فهلمى مسرعة ، وإلا أحسوا بغيبتنا » . ووضعت قناعها من جديد ، ومضت حانقة مغيظة مع الوصيفة إلى القصر ؛ وقد بدت الأشجار والشجيرات وكأنها تبدى لها أنوفاً طوالا وبنانا تشير متعجبة إليها ؛ وكان ضوء القمر يتراقص

بخفة وبراعة على وجهها العريض وكأنه على مفاتيح البيان .
وهكذا أسرعت بالخروج ، كهؤلاء المغنين الذين شاهدتهم كثيراً على المسرح مسايرين بالطبول والأبواق .

لم أعد أعرف بعد ما عسى أن يحدث لى فى أعلى الشجرة ؛ بل بقيت مثبتت العينين على القصر ، لأن دائرة من المشاعل المرتفعة عند درجات المدخل كانت ترسل بريقاً غريباً على النوافذ المتألقة وفى داخل الحديقة بعيداً . كان هؤلاء هم الخدم والحاشية ينشدون لسيدهم الشاب أنشودة المساء . وفى وسطهم كان الحاجب أمام حامل المجسدة يعزف بشدة على الرمشخر[1] ؛ وهو يرتدى أنخر الثياب وينظر بشموخ أنف كوزير للدولة .

وما كاد الموضع يستقر بى لسماع أنشودة المساء فى راحة ، حتى فُتح مَنكبنا باب شرفة القصر . وإذا برجل جميل فارع القوام ، فاخر الهندام ، عليه أوسمة عديدة تتألق ، يأتى من الداخل إلى الشرفة ، وهو يقود بيده — سيدتى الشابة الحسناء وقد تدثرت بالبياض من رأسها حتى قدميها ، وبدت كأنها زنبقة فى الليل أو كالقمر يتحرك على أديم سماء رائقة الصفاء .

فلم يكن فى وسعى أن أشيح بنظرى عن الشرفة ؛ واختفى

---

(١) آلة موسيقية من نوع الآلات الهوائية ذات البستلوصى ، اخترعها أفرانيو ، لسيس پاڤيا ، فى القرن السادس عشر . وهى آلة ذات بستلوصى ويلعب بها بالنفخ فيها . ويستخدم صوتها الغليظ لكى يكون صورا (أى صوتا غليظا) لمجموع آلات النفخ . ويسمى فى اللغات الأجنبية باصون . أما المجسدة فهى «البوتة» .

البستان والشجر والحقول عن وعي ، وأنا أشاهدها واقفة هناك ، هيفاء فارعة القوام ، تضفى عليها المشاعل نوراً ساحراً ، متحدثة فى مرح مع الضابط الوسيم ، أو منحنية فى عطف إلى الموسيقيين . وكان الشعب تحت خارجاً عن طوره من شدة الفرح ؛ وفى النهاية لم أقو على تملك نفسى ، فاضطررت إلى الصياح معهم بأعلى صوتى .

ولما غادرا الشرفة بعد قليل ؛ والمشاعل تغدو الواحد وراء الآخر ؛ وحينما صار البستان من حولى غارقاً فى الظلام يهمس من جديد ، بدأت أتبين — وقد شعرت بهذا كعبء على قلبي ثقيل — أن السيدة الكبرى هى التى طلبت أزهارى ، بينما حسنائى لم تفكر فىّ أدنى تفكير ، وأنها قد تزوجت ، وأنى كنت أحمق جداً .

هوى بى هذا كله إلى هاوية التفكير العميق ؛ فقبعت كالقنفذ فى أشواك أفكارى ؛ ومن القصر كانت موسيقى الرقص تتردد قليلا قليلا ، والسحب وحدها هى التى سيطرت على ظلام البستان . وعلى هذا بقيت طوال الليل مسهد الجفن ، جالساً على شجرتى كالبومة ، وسط أطلال سعادتى .

وأخيراً أيقظنى نسيم الصباح العليل من أحلامى . فدهشت كل الدهشة حين نظرت حوالى . كانت الموسيقى والرقص قد انتهيا منذ زمان ؛ وفى القصر وحول القصر ، وعلى المروج والمراقى والأعمدة بدا كل شىء فاتراً ساجياً عليه سيما الجلال ؛ اللهم إلا النافورة عند المدخل كانت تطن باستمرار . وهنا وهناك بدأت الطيور على الأغصان تتعلق بأسباب اليقظة ، وهى تنفض ريشها

الناسع وتفرد أجنحتها الصغيرة ، ناظرة بعجب ودهشة إلى جارها الغريب . وخلال الحديقة كانت أشعة الصباح تتألق متحركة فى سرور ، وتساقط علىّ فى حبور .

حينئذ تطاولت على الشجرة أنظر لأول مرة مليا إلى الفضاء الممتد فسيحاً على الريف ، فرأيت السفن تمخر عباب الدانوب بين أعلام الكروم ، وتأملت الطريق العام — وكان لا يزال خالياً — وهو يمتد على طول الريف ، المتألق كجسر عبر الأودية ، إلى الجبال البعيدة .

ولسبب ما لى به من علم ، تنبهت فجأة رغبتى القديمة فى الترحال ، وتنبه معها الحزن العتيق والسرور والآمال . وخطر لى فى نفسى الآن أن حسنائى لا بد نائمة بين الأزهار ، تحت أغطية من الحرير فى القصر ، وإلى جوارها يرقد ملك عند سريرها فى سلام الصباح — « لا » ، هكذا صحت « لا بد لى من الارتحال من هنا ، إلى بعيد ، بعيد جداً ، بعيداً ما الشمس زرقاء ! » .

وأخذت سلتى وقذفت بها عالياً فى الفضاء ، حتى كان لذيذاً أن أرى كيف تساقط الأزهار اللامعة خلال الغصون إلى الأرض راقدة على الخضرة فى أسفل . ثم نزلت بسرعة ، وذهبت من خلال البستان الساجى إلى منزلى . وكثيراً ما كنت أتوقف حيث اعتدت الوقوف لمراقبتها ، أو حيث كنت أرقد مفكراً فيها .

وفى دارى ومن حولها كان كل شىء كما غادرته بالأمس : فالحديقة الصغيرة قد نهبت وخربت ، فتجلت عليها سيما الوحشة ،

وفى الغرفة كان دفتر الحساب لا يزال مفتوحاً ، وعلى الحائط علقت الكمان التى نسيتها مراراً ، وقد علاها التراب . ولكن شعاعاً من النافذة المقابلة هبط مباشرة على الأوتار . فهز هذا وتراً فى قلبى . أجل ، هكذا قلتُ ، تعالىْ إلىّ أيتها الآلة المخلصة ! إن مملكتنا ليست من هذا العالم فى شىء !

وهكذا أخذت كمانى من على الحائط ، وتركت دفتر الحساب ، والمبذلة ، والنعال المنزلية ، والغليون والمظلة ، تركتها جميعاً ترقد وحدها حيث هى ؛ وارتحلت ، فقيراً كما أتيت ، عن المنزل ، أدلف على طول الطريق البراق[1] .

وكثيراً ما كنت التفت ورائى ؛ فالخواطر الغريبة تتهاوى على ، حزيناً ومع ذلك سعيداً كل السعادة ، كطائر فر من قفص . وما سرت مسافة طويلة حتى أخذت كمانى وغنيت :

إن أراد الله إظهار رضـــاه
لفتى ألقاه فى الكون يجول
كى يرىٰ أمجـــاده فيما يراه :
جبلٍ ، نهر ، وغاب ، وحقول .

وها هو ذا القصر والبستان ، وها هى ذى أبراج ڤينا تغوص من ورائى فى سماء الصباح ؛ ومن فوق ، فى أجوار الفضاء ، كانت أسراب القُبّر تغنى أغانى النصر . فاتخذت سبيلى ، بين التلال الخضراء خلال القرى المبتهجة ، صوب إيطاليا .

---

(١) هذا هو القلق الملحّ الذى يعانيه أبناء الحنين هؤلاء من الرومنتيك !

الفصل الثالث

ولكن الأمر قد آل سوءاً ! إذ لم يخطر ببالى مطلقا أنى لا أعرف الطريق . وحوالَىّ فى الصباح الساجى لم يكن ثمة كائن أستطيع سؤاله ، وغير بعيد أمامى كان الطريق يتشعب جملة شعب تسير بعيداً ، بعيداً وبعيداً فوق التلال العالية ، وكأنها تفضى إلى خارج العالم كله ، حتى أصاب رأسى الدُّوارُ وأنا أنظر إليها .

وأخيراً أقبل فلاح ، فى طريقه إلى الكنيسة كما ظننت ، لأن اليوم كان يوم أحد . كان يلبس معطفاً من طراز قديم ذا أزرار فضية عريضة ، وفى يده عصا طويلة ذات عُقّافة من الفضة تتألق فى ضوء الشمس . فسألته فى الحال بكل أدب ووقار : « هل تستطيع أن تدلنى على الطريق إلى إيطاليا ؟ » فأطرق ساكنا ، ونظر إلى ، وأفْكر ، وشفته السفلى ممتدة إلى الأمام ؛ ثم نظر إلىّ من جديد . فكررت : « إلى إيطاليا ، حيث ينمو البرتقال[1] » .

« آه ، ما ذا يعنينى من أمر برتقاله » ، هكذا قال الفلاح ، ومشى يهرول مستمراً فى سيره . لقد كنت أظن هذا الرجل أكثر تهذيباً وأدبا ، لأنه بدا أبلج الطلعة وَضّاح الجبين .

ما ذا كنت أفعل إذن ؟ أأعود إلى قريتى ؟ إذن ليشير إلىّ

---

(١) لعل هنا إشارة إلى أغنية جيته المشهورة الواردة فى قصة « ڤلهلم ميستر » ومطلعها :

هل عرفت الأرض بالليمون تزكو   وبأيكٍ برتقالٌ كاللهيب ؟

الناس ، ويجرى وراء الأطفال ، قائلين : « ها ، آلاف تحياتنا للرحالة العائد ! وكيف رأيت الدنيا ؟ أو لم تأت إلينا معك بفطير متوبلٍ من العالم العظيم ؟» لقد كان الحاجب ذو الأنف الأميرية ، الذى كان عالما بالشىء الكثير عن تاريخ العالم ، كثيراً مايقول لى: « أيها المحصِّل الكُسُف ! إن إيطاليا بلد جميل ، فيها يفيض الرب بكل الخيرات ؛ هناك يستطيع الإنسان أن يرقد على ظهره فى الشمس الضاحية ، فتنزل عناقيد العنب فى فمه ؛ وحينما يلسعه الزُّنبور (الترنتوله) ، يرقص برشاقة هائلة ، حتى ولم يكن قد تعلم الرقص من قبل » . لا ، إلى إيطاليا ! هكذا صحت ، ومِلْئى السرور . ودون أن أفكر فى هذه الطرق العديدة ، انطلقت أسير قدماً فى الطريق الذى أمامى .

وما سرت مسافة على الطريق ، حتى رأيت عن يمينى روضة أُنُفاً رائعة الجمال ، تألقت عليها شمس الصباح فى بهجة وانتعاش بين الجذوع والأغصان . فتراءت وكأن بُسُطاً ذهبية قد نشرت على الأرض . ولما لم أر أحداً ، تسلقت السياج الوطئ ورقدت ناعماً على العشب تحت شجرة تفاح ، لأن أطرافى كانت كلها لا تزال فى ألم من تلك الليلة التى قضيتها على الشجرة . ولقد كان من الميسور لى أن أنظر بعيدا فى هـذا الريف الضحيان ، وكانت أجراس الكنائس تدق من بعيد عبر الحقول ، لأن اليوم يوم أحد ؛ وزُمَر من الفلاحين البهيجى الثياب كانت تشق طريقها بين الشُّوج وخلال الحقول صوب الكنيسة . فامتلأ قلبى سروراً

حقاً ؛ وغَنّى الطير فى الأشجار أعلاى ؛ فأفْكَرْتُ فى طاحونتى ، وبستان سيدتى الحسناء ، وكيف صار كل هذا نائيا الآن — حتى استولى على النعاس . حينئذ رأيت فيما يرى النائم أن سيدتى الحسناء قد مشت أو بالأحرى طارت ببطء إلىّ من ذلك البستان الفتان ، على قرع النواقيس ، وعليها لثام بيض طوال ترفرف فى ضوء الصباح الباكر الوَرْدى . ثم بدا لى أننا لسنا بعدُ فى مكان غريب ، بل بالقرب من قريتى حيث تقبع الطاحونة فى الظلال . وكان هناك كل شىء ساكناً خاليا كما كان يحدث حين يذهب الناس إلى الكنيسة أجمعين ، وليس غير صوت الأُرْغُن يتردد من خلال الأشجار ، حتى سرت فى قلبى شائعة الأسى والحَزن . ولكن سيدتى الحسناء كانت عطوفاً علىّ رفيقة بى ؛ فأخذتنى من يدى ومشت إلى جوارى وغنت تلك الأغنية العذبة التى كانت تتغنى بها دائماً بمسايرة قيثارتها فى تلك الأصباح الباكرة عند النافذة ، ورأيت انعكاس صورتها على صفحة البحيرة الساكنة ، ولكن أجمل بآلاف المرات ، وبعيون نجل غريبة كانت تنظر إلى بثبات حتى كدت أرتاع . وفجأة بدأت رحى الطاحونة تدور وتجعجع ، فى البدء بضربات بطيئة غير متصلة ، ثم من بعد بسرعة تزداد وعنف يشتد ؛ وعلت البركة ظلمة ازدادت شيئاً فشيئا ، واضطرب استواء سطحها ؛ وأصبحت حسنائى شاحبة كل الشحوب ، واستطال لثامها شيئاً فشيئاً ورفرف بأطرافه بشكل مخيف ، كقزعات من الضباب ، صوب السماء ؛

وارتفع ضجيج الجمجمة كثيراً كثيرا ؛ وكان يبدو أحيانا كأن الحاجب ماثل هناك هو الآخر ، عازفاً على زَمْخره ، إلى أن استيقظت أخيراً ، وقلبي فى خفقان رهيب[١] .

وهبت ريح ظلت تعصف خلال شجرة التفاح أعلاى. ولكن لا الطاحونة ولا الحاجب هو الذى يحدث الضوضاء ، بل هذا الفلاح نفسه الذى رفض منذ قليل أن يدلنى على الطريق إلى إيطاليا. ولم يكن بعد لابساً زى الأحد ؛ إنما مثل أمامى فى قميص أبيض ، وقال ، وأنا أرحض النوم عن عيونى ، : « ها ! هل يريد أن يقتطف برتقالا هنا ، واطئاً أعشابى بدلا من الذهاب إلى الكنيسة . يا له من شقىّ كسول ! » ومع هذا لم أتضايق إلا من مجرد إيقاظ هذا الجلْف لى ؛ فنهضت واثباً مغضباً وأجبت : « ماذا ! أتجسر على النيْل منى ؟ لقد كنت بستانياً ، قبل أن يفكر[٢] هو فى شيء من هذا ؛ وكنت محصل مكوس ، وإذا كان قد قدر له أن يأتى إلى المدينة لكان عليه إذن أن يرفع قبعته القذرة المهلهلة تحية لى ، ولرأى إذن منزلى ومبذلتى الحمراء ذات النقط الصفراء» . ولكن الجلْف لم يلْق بالا لهذا ، إنما وضع يديه فى خاصرته وقال : « ماذا تريد ؟ ها ، ها ! » وفى تلك الأثناء لاحظت أنه قزَم غليظٌ

---

(١) سيحقق هذا الحلم بتمامه فى نهاية المطاف . وهو حلم من طراز ما يستهوى أصحاب النزعة الرومنتيكية . راجع كتاب : « الحلم عند الرومنتيك الألمان » تأليف البير بيجان ، باريس سنة ١٩٣٧ .

(٢) نستعمل ضمير الغائب هنا بدلا من ضمير المخاطب ، من أجل التحقير ، كما فى الأصل الألمانى .

الألواح أحنى السيقان ، ذو عينين جاحظتين كبيرتين وأنف حمراء تميل إلى القنا . ولما استمر يقول : «ها ! ها !» — وفى كل مرة يخطو خطوة إلى الأمام ، استولى علىّ نوع غريب من الفزع العدائى ، حتى إنى وثبت بسرعة وقفزت على السياج دون أن ألتفت ورائى ، وعدوت قُدُماً خلال الريف ، وكأنى تخشخش فى جيبى .

ولما توقفت أخيراً لأتنفس ، كان البستان والوادى كله قد غابا ، وقد صرت إلى غابة بديعة . غير أنى لم أهتم بها كثيراً ، لأنى كنت فى تلك اللحظة مغضباً حقاً وأنا أفكر فى هذا المنظر وكيف تحدّث إلى الرجل طوال الوقت بلهجة ضمير الغائب ؛ وبقيت ألعنه فى نفسى فترة طويلة . وسرت سريعاً وأنا مفعم بهذه الأفكار ، مبتعداً باستمرار عن الطريق العام ، متجهاً صوب الجبال . ثم بلغ الطريق الذى كنت أسير عليه غايته ؛ ولم يكن ثمة غير موطئ أقدامٍ ضيق قليل الاستعمال تُجاهى . وحوالىّ لم يكن ثمة دليل على وجود أحد ، ولم يكن فى وسعى أن أسمع صوتا إنسانيا . وعدا هذا ، كان المنظر ساراً بديعاً ، وذرى الأشجار تحف برشاقة ، والطيور تغنى فى عذوبة وجمال . ففوضت أمر هدايتى إلى الله ، وأخذت كمانى وشدوت كل ما كنت أعرف من أغان وألحان محبوبة ، كانت تتجاوب بها الغابة المتوحّدة فى مرح وابتهاج .

ولم يكن عزف الكمان ليستمر طويلا ، لأنى كنت فى كل لحظة أسير على جذور الأشجار ؛ وقد صرت الآن جوعان ، ولم

يكن للغابة نهاية . فبقيت أتجول طوال النهار ، إلى أن بدأت الشمس تشرق فى أنحناء خلال جذوع الشجر ، فصرت إلى واد صغير محوط بالتلال ، ملئ بأزهار حمراء وصفراء ، من فوقها جماعات الفراش ترف فى هواء المساء . هنا كان كل شيء ساكنا ، وكأن العالم بعيد منه آلاف الأميال . اللهم إلا الجنادب كانت تَصرّ ، كما كان ثمة راع يرقد على الأعشاب الطويلة عبر الوادى وينفخ بأنغام حزينة حتى كاد قلبي من الحزن أن يذوب . نعم ، هكذا قلت لنفسى ، ليس لأحد من الفراغ الجميل مثل ما لهذا الشارد هناك ؟ علىّ أن أجوب الأصقاع بين الغرباء ، وأن أكون دائماً على حذر . وبينه وبينى كان ثمة نهر صاف يجرى ، لذا لم يكن فى وسعى الذهاب إليه ، غير أنى ناديته من بعيد : أين أقرب القرى إلى هنا ؟ ولكنه لم يقلق نفسه ، بل رفع رأسه من بين الأعشاب ، وأشار بنايه إلى الغابة الأخرى مستمراً فى الإنشاد .

حينئذ سرت قُدُماً ، لأن الشمس قد أطفلت . وسكنت الطيور ، بعد أن كانت تغنى عالياً ساعة كانت أشعة الشمس الأخيرة تنفذ خلال الأشجار . وبدأت أشعر بارتياع ، فى هذا الحفيف الأبدى المتوحّد السارى فى الغاب . وأخيراً سمعت من بعيد نباح كلاب ، فزدت من سرعة سيرى ، وإذا بالغابة تزداد تخلخلا . وسرعان ما أبصرت خلال الأشجار الأخيرة فسحة أرضية خضراء جميلة ، عليها كثير من الأطفال يصيحون ويرقصون حول زيزفونة باسقة قائمة فى الوسط . وغير بعيد ، كان ثمة نُزُلٌ جلس

أمامه بعضُ الفلاحين يلعبون الورق ويدخنون . وعلى الجانب الآخر جاس لفيف من الفتيان والفتيات وأذْرُعتهم فى خواصرهم ، يتحدثون سويا فى المساء العليل .

ولم أقف طويلا لتأمل ما أمامى ، بل أخذت كمانى من جيبى ، وبدأت أعزف عليها نغمة موسيقية مرحة وأنا خارج من الغابة فى طريقى إليهم . فدهش الفتيات ، وضحك الشيوخ ، حتى تجاوبت الغابة بالأصداء . وحين بلغتُ الزيزفونة واستندت بظهرى إليها وأنا أعزف باستمرار ، كان ثمة همس وحديث بين فريق الشباب ؛ فألقى الشبان غليونات الأحد التى كانت معهم جانبا ، وأخذ كلٌّ فتاته ، وقبل أن أنتبه ، كان جميع الفتيان والفتيات يرقصون من حولى بسرور ومرح ، والكلاب تنبح ، والدُّرَّاعات تتطاير ، ووقف الأطفال من حولهم ونظروا إلى نظرة المتعجبين ، إلى وجهى وإلى بنانى وهى تتحرك بخفة ورشاقة .

فلما انتهى الدور الأول من الرقص الراكض ، كان فى وسعى أن أتبين مقدار ما للموسيقى الجيدة من تأثير على الأطراف . فالفلاحون الشباب الذين كانوا جالسين ، وفى أفواههم الغليونات ، على المقاعد ، مادين سيقانهم القاسية ، قد تغيروا فجأة ؛ فجعلوا مناديلهم الزاهية الألوان تتدلى من عُرى أزرارهم ، وداروا ببراعة ورشاقة حول الفتيات ، حتى كان فى ذلك كله فتنة للناظرين . وكان من بينهم شخص ، ظن نفسه على شىء من الأهمية ، فظل يخشخش فى جيبه طويلا كى ينتبه إليه الآخرون ، وأخيراً أخرج

قطعة صغيرة من الفضة حاول أن يلقيها فى يدى . فضايقنى هذا ، على الرغم من أنه لم يكن فى جيبى حينذاك شىء من النقد . وطلبت إليه أن يحتفظ بنقوده ، لأنى لم أعرف إلا لأنى كنت مسروراً بوجودى من جديد بين أناس .

وبعد قليل أتتنى فتاة لعوب بكأس من الخمر دهاق . « إن العازفين على الكمان يحبون الشرب » . هكذا قالت وهى تبتسم برقة وود ، ابتسامة كشفت عن ثنايا من اللؤلؤ ترف فاتنة بين شفتين حمراوين وددت لو قبلتهما . ثم وضعت ثغرها اللطيف على الكأس ، وعيناها تتألقان صوبى عبر الكأس ، وناولتنيها . فأفرغتها . ثم بدأت أعزف من جديد بينا رقص الكل من حولى مسرورين .

وفى تلك الأثناء كان الشيوخ قد انتهوا من لعبهم ، وبدأ الشبان يشعرون بالتعب ، وقليلا قليلا ساد السكون وسيطرت الوحشة على الأعشاب الخضراء . بل إن الفتاة التى ناولتنى الخمر ذهبت هى الأخرى صوب القرية ؛ ولكنها سارت ببطء جداً ، واستمرت تنظر فيما حولها وكأنها نسيت شيئاً . وأخيراً وقفت ونظرت إلى شىء على الأرض ؛ ولكنى لاحظت أنها حين انحنت كانت تنظر إلىّ من تحت ذراعها . وأنا قد تعلمت فنوناً من الآداب فى القصر ، لذا هرعت إليها وقلت : « هل فقدت شيئاً أيتها الآنسة الحسناء ؟ » — « آه ، كلا » ، هكذا أجابت وخداها يزدادان من الخجل توردّاً ، « إنها وردة فحسب ، أتريدها

لنفسك ؟ » فشكرت لها ووضعت الوردة فى العروة . فرمقتنى بنظرة وامقة وقالت : « إنك تعزف جيداً » . فأجبتها : « نعم ، إنها هبة من الله » . — « لا يوجد غير قليل جدا من الموسيقيين فى هذه الناحية » ، هكذا عادت تقول ، ثم توقفت وعيناها صوب الأرض : « وفى وسعك أن تكسب هنا كثيراً من المال — إن أبى يعزف أيضاً بعض الشىء على الكمان ، ويلذ له أن يسمع أخبار العالم الأجنبى — وأبى ثرى جداً » . ثم ضحكت وأضافت : « آه لو لم تُبْدِ هذه التقطيبات وأنت تعزف ! » . فأجبتها : « يا لفتاتى العزيزة ، إن هزات رأسنا على هذا النحو ، ليس فى الوسع التخلص منها ، ونحن الموسيقاريين نأتيها أجمعين » . — « أوه ! » ، أجابت الفتاة هكذا ورغبت فى أن تزيد ، ولكن حدثت حينئذ فى النُّـزُل هزة مخيفة ، وفتح الباب بصرير شديد ، وخرج منه فتى دقيق الشبح نحيل كأنه حربة البندقية ، وبعد هذا أُغلق الباب من ورائه بشدة .

وما سمعت الفتاة أول صوت ، حتى كانت تجرى بسرعة كالغزال المذعور ، وغابت فى الظلام . ثم نهض الشبح الماثل عند الباب بخفة وسرعة من على الأرض وبدأ يلعن النُّـزُل بطريقة متناهية فى الغرابة : « ماذا ! أسكران أنا ؟ ألم أدفع كل ما على مما هو مسجل بالطباشير على بابكم الملعون ؟ امسحوا هذا ، امسحوه ! ألم أختلبكم فى حبالتى وأجعلكم تعضون على التراب ؟ هنا علامة — وهناك ثانية — وثالثة أخرى — وماذا أيضاً تريدون أن أدفع من هذه

الملامات الوقحة ؟ ولـكن ، لا تهتم ، سأدع القرية كلها ، بل سأترك العالم كله وشأنه ! ولأذقانـكم أن تنمو ، حتى يأتى يوم الحساب فلا يعرف الله هل أنتم يهود أو نصارى . أجل ، علقوا أنفسكم من لحاكم ، أيها الأوغاد السفلة ! » وهنا بدأ البكاء فجأة وبطريقة تستدر دموع الرثاء له والعطف عليه ، واستمر يصيح بصوته الحاد الخارق : « أعلىّ إذن أن أتجرع المـاء كالسمك المسكين ؟ أهذا ما عندكم من حب الجار ؟ ألست إنساناً ، وجرّاحاً فى الجيش طويل المران والخبرة ؟ آه ، إننى اليوم فى حال من الاهتياج والغضب شديدة ! إن قلبى مفعم بالرحمة والحب للانسانية ! » وطوال هـذا كان يبتعد شيئاً فشيئاً عن النزل ، كلـا وجد السكون يخيم حواليه . فلما رآنى أقبل على بذراعين مفتوحتين ؛ فظننت الرجل المجنون قد أراد معانقتى ، لذا وثبت جانباً ، وترنح هو قليلا ، وسمعته لفترة طويلة يخاطب نفسه فى الظلام ، بخشونة تارة وبرقة أخرى .

فتواثبت الأفكار فى رأسى . فالفتاة التى ناولتنى الوردة كانت شابة جميلة ثرية — فكان فى وسعى إذن أن أ كون سعيداً ، قبل أن أطرف بعينى . والضأن والخنازير والديكة الرومية والإوزّ السمين المحشو بالتفاح — أجل ، خيل إلى أنى أرى الحاجب مقبلا على وهو يقول : « خذها ولديك الفرصة ، أيها المحصل . لم يأسف على الزواج أحد وهو شاب ، والسعيد الذى يعود إلى وطنه ومعه عروسه ، استقرّ بالوطن وليتربّل لحمك ولتسمن ! » ثم

أجلست نفسي ، وأنا غارق في هذه الأفكار الفلسفية ، على حجر فوق العشب الأخضر ، وقد صار الآن قفراً ؛ لأنى ، وأنا خاوى الوفاض . لم أستطع أن أقرع باب المنزل .

كان القمر يتألق رائع الجمال ؛ وحفيف الشجر يسرى فى الليل الساجى إلىّ من التلال ؛ وبين الحين والحين ينبح كلب فى القرية الراقدة مختفية فى اللوح غارقة فى ضوء القمر . فرفعت بصرى أتأمل أديم السماء ، وأراقب بعضاً من السحاب وهو يمر خلالها فى توان ، أو أرنو إلى نجم يهوى فى الأفق البعيد . فقلت فى نفسى : إن القمر يضىء أيضا على طاحونة والدى الآن ، وعلى القصر الأبيض للدوق . وكل شىء قد سجا هناك منذ زمان ، والحسناء راقدة ، والنافورات والأشجار ذات حفيف فى البستان كما اعتادت أن تفعل ، ولا يعنيهم مطلقاً فى شىء أن أكون هناك أو بعيداً أو حتى فى القبر . وفجأة تبدى لى العالم كمكان واسع كل السعة ، وأنا وحيد منعزل هكذا فيه ، حتى أنى بكيت من أعماق الفؤاد[١] .

وبينا كنت جالساً هناك أجيل فى نفسى ألواناً من هذه الأفكار ، سمعت فجأة كَدَفة خيول بعيداً فى الغابة . فأمسكت بنفسى وأرعيت سمعى ؛ فاقترب الصوت قليلا قليلا ، حتى أصبح فى وسعى سماع نخير الخيول . وسرعان ما ظهر راكبان من بين

---

(١) هنا تعبير رائع عن الشعور بشقاء الضمير ، هذا الشعور المميز للروح الرومنتيكية .

الأشجار ، وقفا عند حافة الغابة ، وأنشآ يتهامسان معاً بحرارة كما تبين لى من الظلال على العشب ، وأذرعهم الطوال السود تشير هنا وهناك . — وكم كنت أود ، حين كانت أمى المتوفية من زمان بعيد تقص على قصص الغابات الموحشة واللصوص السفاكين ، كم كنت أود حينئذ فى أعماق أن أحيا مثل هذه القصص . وهأنذا الآن أحظى بأمانى وخواطرى البلهاء الحمقى ! — فمددت نفسى بكل حذر على شجرة الزيزفون التى كنت جالساً تحتها حتى صيرت نفسى طويلا إلى حد بلوغ أدنى غصن ، ثم صعدت بسرعة . ولكنى كنت لا أزال أتشبث بنصف جسمى بالغصن ، وأحاول أن أرفع رجلى ، حين أتى أحد الراكبَين بسرعة خلال العشب من خلفى . فأغلقت عينى تحت غطاء من الأوراق المعتمة ولم أتحرك أدنى حركة . فصاح صوت خلفى مباشرة فجأة وقال : « مَن هناك ؟ » . فصحت فزعاً بأعلى صوتى ، وقد راعنى أنه رآنى : « لا أحد » . وكان على أن أضحك فى نفسى وأنا أتصور كيف يبلغ بهم اليأس وخيبة الأمل حين يفتشون جيوبى[1] . فقال اللص : « أوه ! أوه ! ولمن إذن هذان الساقان المتدليان هناك ؟ » فلم يكن ثمة سبيل للخلاص ؛ فأجبت : « إنهما زوج من السيقان لموسيقار بائس فقير » ، ثم هبطت بسرعة إلى الأرض ، لأنى خجلت من التدلى هكذا طويلا ، كالشوكة المكسورة ، من أعلى الغصن .

---

(١) ياله من فتى داهية ! فهو لا ينسى التهكم والمزاح حتى فى أشد المواقف حرجاً له . فهو كالعبقرى : فى الحزن مسرور ، وفى السرور محزون .

فجفل الجوادُ حين انزلقت هكذا من الشجرة . ولـكن الفارس ربّت على عنقه وقال ضاحكا : « أجل ، ونحن أيضا قد ضللنا الطريق ، فسنكون إذن رفاقاً طيبين ؛ لقد ظننت أن فى وسعك أن تعيننا على معرفة الطريق إلى ب . ولن يكون فى هذا لك منه مضرة » . وعبثا كان لى أن أقول إننى لا أعرف أين تقع ب ، وإن من الخير أن أسأل فى النزل أو أسير بهم إلى القرية ؛ فإن هذا الرفيق لم يشأ أن يسمع لـكلامى . بل أخرج من حزامه طبنجة كانت تتألق جميلة فى ضوء القمر ، أخرجها بهدوء وقال بلهجة ودية للغـاية ، وهو ينظف الطبنجة ويفحصها بعينه : « يا صديقى العزيز ، ستكون من اللطف والود بحيث تقودنا أنت نفسك إلى ب » .

كنت فى حيرة من أمرى . لأنى إذا وجدت الطريق ، فسأجد نفسى وسط عصابة من اللصوص وسأضرب ضرباً مبرحاً لأنى خاوى الوفاض ؛ وإذا لم أجده — فسأضرب أيضا من غير شك . فلم أتوقف للتفـكير طويلا فى هذا الأمر ، بل أخذت أول طريق فى متناولى ، وهو الآتى من القرية المـارّ بالنُّزُل . فذهب الراكب بسرعة إلى رفيقه ، وتبعانى ببطء على مسافة قصيرة . وهكذا سرنا حيثما اتفق وفى شيء من الحمق ، تحت ليل أضاءه نور القمر . وكان الطريق يمر خلال أشجار على ناحية تل ؛ وفى وسع المرء أحيانا أن ينظر فى أعماق الوادى الساكن خلال أعالى أشجار الصنوبر وهى تمد أشباحاً مظلمة متحركة ؛ وبين الفينة والفينة

البلابل تشدو ، والـكلاب فى القرى البعيدة تنبح . وخلال الوادى كان ثمة نهر يجرى متألقاً على فترات تحت ضوء القمر . ومن ورائى ترددت كدفات الخيول الرتيبة وضوضاء الراكبين وهما يتحدثان سوياً طوال الوقت بلغة غريبة ؛ كما تبدى ضوء القمر الساطع وظلالُ الأشجـار الطويلةُ وهى تمر باستمرار فوق وجوه الراكبين ، حتى ظهرا معتمين ، ثم مضيئين ، وحيناً قصاراً، وأخرى عمالقة . فاختلطت على الأفكار ، وكأنى أحلم ، ولم يكن فى وسعى إيقاظ نفسى . وسرت قُـدُماً إلى الأمام حاسباً أننا لا بد وأن نخرج فى النهاية من الغابة ومن الليل .

وأخيراً بدأت أطياف ضوء وردى تبـدو فى السماء ؛ ضعيفة نحيفة فى البدء كنفَس نفخ على مرآة ؛ ثم بدت قبرة تشدو عاليا فوق رأس الوادى الساجى . فاهتز قلبى طرباً عند هذه التحية الباكرة ، وزالت عنى المخاوف . ولـكن الراكبين تطاولا ونظرا حواليهما وبدا أنهما بدآ يتبينان لأول مرة أنهما ربما لم يكونا سائرين على الطريق الصحيح . فتحادثا ملياً ، ولاحظت أنهما كانا يتحدثان عنى ؛ أجل ، لقد بدا أيضا وكأن أحدهما خائف منى ، وكأنى قاطع طريق حقاً يريد بهم التضليل والتغرير فى الغاب . فسرنى هذا ، لأنه كلما تخلخلت الغابة وخفّـت من حولى ازدادت شجاعتى ، خصوصاً حين وصلنا إلى فسحة جميلة فى الغـابة . فنفضت المـكان من حولى ، ثم أحدثت بين أصابعى فرقعة حادة ، كما يفعل الصعاليك حينما يريد بعضهم الإشارة لبعض .

فصاح أحد الراكبين : « فف ! » بصوت عال جعلني أقفز . فلما أبصرت حولي ، كانا قد نزلا وشدا جواديهما إلى شجرة . وجاء أحدهما إلى جواري وحملق في وجهي ، وبدأ الضحك فجأة وبإفراط . وعلى أن أعترف بأني تضايقت كثيراً من هذا الضحك الأبله . ولكنه قال : « نعم ، إنه البستاني حقاً ، أو بالأحرى يجب أن أقول إنه المحصل في القصر ! » .

فحملقت في وجهه ولكني لم أستطع أن أتذكر أني رأيته من قبل ؛ غير أنه لم يكن في وسعي أن ألاحظ كل السادة الشباب الذين كانوا يغدون إلى القصر ويعودون منه راكبين ، وإلا لما كنت أشتغل في شيء . واستمر يضحك ويقول : « هذا بديع ! إنك هنا للنزهة ؛ إنّا في حاجة إلى خادم ، فابق معنا ، تكن حياتك نزهة مستمرة » . فذهلت كل الذهول ، وأخيراً قلت إنني الآن في الطريق إلى إيطاليا . « إلى إيطاليا ؟ » ، هكذا أجاب الرجل الغريب . « ولكننا نحن أيضاً نريد الذهاب إلى هناك » . « إذن ، في هذه الحالة وما دام الأمر كذلك . . . » هكذا صحت وأخذت كماني من جيبي وأنا مفعم بالسرور ، وعزفت عليها حتى استيقظت الطيور في الغاب . وهنا أمسك السيد برفيقه ورقص معه بطريقة جنونية على شكل دائري فوق الخضرة .

ثم توقفا فجأة . وصاح أولهما : « إلهي ! إنني لأستطيع أن أرى أبراج كنيسة ب ! وسرعان ما سنكون هناك » . واستل ساعته وتركها تدق ، وهز رأسه وتركها تدق من جديد ، وقال : « كلا ،

هناك فى ساعة مبكرة جداً ، وقد لا يكون هذا حسناً » .

وفتشا فى حقائب السرج عن فطائر ولحم وخمر ، صفاها على مفرش بديع براق بسطاه على العشب ، ورقدا إلى جواره وبدآ يأكلان فى مرح وسرور ، مقسمين وإياى كل شىء بسخاء ، مما أرضانى كثيراً ، لأنى لم أحظ منذ أيام عدة بأكلة طيبة . وقال لى أحدهما : « لعلك تعرف . . . أولا تعرفنا » — فأنغضت رأسى علامة إنكار . « إذن فلتعلم أننى أنا الرسام ليونارد وهو الرسام جويدو » .

ونظرت بعناية إلى الرسامين فى ضوء الصباح . أما الذى اسمه ليونارد فقد كان فارع القامة ، ضاوياً ، أسمر ، ذا عينين باسمتين مَزْهوتين . أما الآخر فكان أحدث سناً بكثير وأقصر وأكثر دفة ولباقة ، وكان لابساً ما سماه الحاجب باسم الطراز الألمانى القديم ، قميصاً وابنيقة بيضاء ؛ وكشف عن نحر عار تهدلت عليه جدائل كان عليه كثيراً أن يكشفها عن وجهه . فلما أكل قدراً وافياً ، أخذ كمانى وكانت موضوعة على الأرض إلى جوارى ، وجلس على غصن شجرة وبدأ يعبث بأنامله عليها . ثم غنى بصوت رائق عذب كالطائر ، حتى تجاوب غناؤه فى قلبى :

خلالَ الغيم فى الوادى
شعاع الصبح ينجابُ
فيهفو الطائر الشادى
ويصحو التل والغابُ

وتعرو المرء أطــوار
بها من نشوة يعدو
لو أن الشدْو طيـار ،
فلمْ يا قلب لا تشــدو !

وتلاعب نور الصباح الوردى برشـاقة على وجهه الشاحب بعض الشحوب ، وعينيه العاشقتين النجلاوين . ولـكنى كنت متعباً إلى حد أن الـكلمات والموسـيقى اختلطت لدى شيئاً فشيئاً كلمـا أمعن فى الغناء ، حتى استولى علىّ النعاس .

فلمـا بدأت أستيقظ فى توان واستبطاء ، سمعت وكأن فى المنام ، هذين الرسامين يتناجيان ،والطيور تغنى فوقى بأعذب الألحان، وأشـعة الصبح بين جفونى فى بَرَقان ، حتى رأيت نوراً كنور الشـمس يضىء خلال ستائر حريرية حمراء . وسمعت إلى جوارى رجلا يصيح : « كم هو جميل رائع ! ». ففتحت عينى ورأيت الرسام الشاب ينحنى على فى نور الصباح المتألق ، ولم يكن ظاهراً من بين الجدائل المهدلة على عطفيه غير عينيه النجلاوين .

فوثبت بسرعة لأن النهار قد توضح وتجـلى . وبدا ليونارد أمامى فى ضيق : فقـد ارتسمت على جبينه تقطيبة مغضبة وهو يستحثنا على الرحيل فى الحال . أما الرسام الآخر فقد كشف جدائله عن وجهه وغنى لحناً بسكون بينـا هو يحل جواده ، إلى أن ضحك ضحكة عالية ، وأمسك بزجاجة كانت لا تزال على العشب وأفرغ ما بها فى الـكؤوس . وصاح : «على سلامة الوصول !» . وقرعوا

الكؤوس بعضها ببعض حتى كان عن ذلك رنين عذب . ثم قذف ليونارد بالزجاجة الفارغة فى الهواء عالياً فتألقت بحبور فى نور الصباح .

وأخيراً ركبا من جديد ، ومشيت أنا إلى جوارهم بقوة . وكان يمتد أمامنا سهل منبسط فسيح كنا منحدرين إليه الآن . فشعرت بانتعاش وسعادة وكأنى على وشك أن أطير من أعلى الجبال إلى هذه البلاد الرائعة الماثلة أمامنا فى همس وبريق .

الفصل الرابع

وداعاً إذن أيتها الطاحونة ، ويا ذا القصر والحاجب ! لقد عدونا بسرعة حتى كانت الريح تصفر فى أذنى . وعن يمين وشمال مرت بنا القرى والمدن وعرائش الكروم ، بسرعة كأنها شعاع يمر خاطفاً أمام العيون ؛ ومن خلفى جلس الرسامان فى العربة ؛ وأمامى سارت أربعة خيول لها سائق أحْوَذى ؛ أما أنا فجلست على مقعد السائق ، وكثيراً ما كنت أتواثب عالياً فى الهواء .

وهاأنذا أروى لك الآن ما حدث : حين وصلنا قرب ب ، استقبلنا أمامها رجل فارع القامة نحيل ضَجَرة يلبس دُرّاعة خضراء وقادنا إلى داخل القرية . وأمام بيت العربات وقفت عربة فاخرة ذات أربعة خيول تحت شجرة الزيزفون . وفى الطريق كان ليونارد قد لاحظ أن ملابسى قد ضاقت على ، فأخذ بسرعة بعضاً

من الملابس من حقيبته ، وأعطانيها ؛ ملبست سترة مذيلة (فراك) وصديريا جديدين بدبمين وافقا طلعتى تمام الموافقة ، ولـكنهما كانا، ويا لسوء الحظ ، واسعين طويلين فتهدلا حول جسمى فى ثنيات . كما حصلت أيضاً على قبعـة جديدة كانت تتألق فى نور الشمس كأنها مطلية بطلاء جديد . وحينئذ أخذ الغريب الضّجَـرة بأعنة جوادى الرسامين ، ووثب الرسامان أنفسهما فى العربة ، وصعدت أنا إلى مقعد السائق ، وانطلقا بسرعة ، فى اللحظة التى أطل فيها ناظر بيت العربات من النافذة برأسه وهو لابس قبعة الليل . ونفخ الحوذى مبتهجاً فى البوق ؛ ومضينا فى الطريق إلى إيطاليا .

هنا فوق مقعد السابق نعمت بحياة عجيبة حقاً ، كطائر يحلق فى الهواء دون حاجة إلى تكلف عناء الطيران . فلم يكن لدى ما أعمله إلا أن أجلس هنا صباح مساء ، وأن أنشد طعاماً وشرابا فى نزل ، لأن الرسامين لم يغادرا العربة مطلقاً ؛ وإبان النهار كانا يحكمان إغـلاق النوافذ وكأنهما يخشيان ضربة شمس . اللهم إلا جويدو : كان يطل برأسه اللطيفة أحيانا خارج النافـذة كى يتحدث إلىّ حديثا وديا ، ثم يضحك من ليونارد الذى كان يود منعه من الـكلام وكان يظهر الضجر من حديثنا الطويل فى كل مرة كنا نتحادث فيها . وفى مرة أو اثنتين كدت على وشك العراك مع سيدى : الأولى فى ليلة بديعة مرصعة بالنجوم المتألقة ، حين بدأت أعزف على كمانى وأنا جالس على مقعد السـائق ، والثانية كانت حول النوم . لقد كان ذلك غريبا حقا ! فلقد رغبت فى رؤية

إيطاليا جيداً ، فكنت أفتح عينين واسعتين كل ربع ساعة . ولكنى كنت لا أكاد أجلس بضع دقائق أحدق فيما أمامى حتى كانت حوافر الخيول الستة عشر تحدث ضجيجاً واضطرابا هنا وهناك وفى الخلف والأمام كالشبكة ، إلى درجة أن تبدأ عينى الإغماض ، ثم ينتهى الأمر بأن يستولى على نماس رهيب لا أقوى على دفعه ، إلى حد أن لا يكون ثمة مهرب . وسواء أكان ذلك ليلا أو نهاراً ، مطراً أو صحوا ، التيرول أو إيطاليا ، كنت دائماً أتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، وخلفاً فوق المقعد ، بل قد كنت أتمايل أحياناً بقوة صوب الرفْرَف إلى درجة أن قبعتى كانت تسقط ، فيصيح جويدو فى العربة بصوت عال .

وعلى هذا النحو ارتحلت ، لست أدرى كيف ، خلال نصف إيطاليا المسمى لومبارديا ، إلى أن توقفنا ذات مساء جميل أمام نُزُل ريفى . وأمرنا بخيول من بيت العربات المجاور كى نركبها بعد بضع ساعات ؛ لذا غادر الرساماًن العربة وطلبا غرفة خاصة فيها يستطيعون الاستراحة وكتابة بضع رسائل . أما أنا فقد تملكنى السرور ومضيت فى الحال إلى غرفة المسافرين ، عسى أن أجد ما آكله وما أشربه فى راحة وسلام ، ولكنها كانت حقيرة . فالنُّدُل من الفتيات كن يبدُنّ غير متمشطات ، تتهدل الفُوَط بقذارة من رقابهم الصفر . وإلى مائدة مستديرة جلس خدم المنزل مرتدين قمصاناً زرقاً ، وهم يأكلون عشاءهم ويحدقون عن عُرُض إلى بين حين وحين . وكانوا جميعاً يلبسون ضفائر قصيرة كثيفة ويبدو

على وجوههم سيما الفتيان الأرستقراطيين — فقلت لنفسي : هأنذا الآن أخيراً فى تلك البلاد التى يأتى إليها المغرمون بالاستطلاع ليروا سيدنا القسيس ، ومعهم مصائد الفئران ومقاييس الضغط الجوى والصور . أى أحداث لا يمر بها المرء ، حين يغادر مرة موقد النار فى الدار !

وبينا كنت جالساً هكذا آكل وأفكر ، إذا بِرُجَيل كان جالساً فى ركن مظلم مختلياً بكأس النبيذ ينهض من زاويته التى انتحاها وسار حولى كالعنكبوت . وكان دحداحاً أحدب ؛ ولكن له رأساً كبيرة مربعة ذات أنف رومانية طويلة كأنف النَّسْر ، ولحية حمراء صغيرة على صُدْغيه ، وشعره المذرور واقف حول رأسه وكأن ريحاً عاصفة قد هبت فيه . وكان يلبس سُترة مُذيّلة قديمة الطراز باهتة وسراويل وَبْراء وجوارب حريرية استحالت إلى لون أصفر . لقد سافر مرة إلى ألمانيا فظن أنه يجيد الألمانية تمام الإجادة . فجلس إلى جوارى وراح يسألنى عن هذا وعن ذاك ، ويتنشق النّشوق باستمرار : هل أنا الخادم ؟ ومتى توقعنا أن نصل ؟ وهل نحن ذاهبون إلى روما ؟ ولكنى لم أكن أعرف هذا أنا نفسى ، كما لم يكن فى وسعى أن أفهم لغطه وهراءه . وأخيراً قلت له متضايقاً : « أتعرف الفرنسية »[1] ؟ فهز رأسه الضخمة ، مما رفّه عنى كثيراً ، لأنى أنا أيضاً لم أكن أعرف الفرنسية . غير أن هذا لم يُجْدِ فتيلا . فقد كان يقصد منى شيئاً ، فعاد يسألنى من

(١) هذا السؤال ألقاه بالفرنسية .

جديد باستمرار ؛ وكلما توغلنا فى الحديث ، قل فهم الواحد منا للآخر ، إلى أن غضب كل منا فى النهاية غضباً ظننت معه أن هذا السيد ذا المنقار كمنقار النسر على وشك أن ينقرنى ؛ ثم إن الفتيات اللائى كن يستمعن إلى حديثنا البابلى قهقهن وانتهزن فى الضحك. أما أنا فقد تركت شوكتى وسكينى وخرجت من الباب . وشعرت فى هذا البلد الغريب ، كأنى قد غصت بواسطة لغتى الألمانية آلاف الأميال تحت البحر ، وكأن كل من هب ودب همس ساخراً فى وُخْدتى ، وحلق فى وجهى متواقحاً على .

فى الخارج كانت الليلة حارة صائفة ، أليق ما يكون بالنزهة مع الحبيبة خلال الريف المتألق فى ضوء القمر . وكانت عرائش الكروم البعيدة ترسل أغنية كرّام نشوان ؛ ومن بعيد يتخلل الليل برق أحياناً ؛ والريف بأسره يرتعد هامساً فى ضوء القمر . وخيل إلى ذات مرة أن شبحاً فارعاً نحيلا قد انزلق بين أغصان الكسْتَنا أمام المنزل ونظر خلسة من خلال الأوراق ؛ ثم سكن كل شىء . وخرج جويدو إلى شرفة النُّزُل ؛ ولكنه لم ينتبه إلىّ ، بل بدأ يعزف بمنتهى المهارة على قيثارة لا بد أن يكون قد وجدها فى النزل. ثم غنى كالعندليب :

خيم الصمت على عالى المَـرَحْ
وتولى الأرضَ همسٌ كالحلُم
ليس يُدْرَى ؛ إنما هذا تَرَحْ
ناعمٌ أو ذى عهودٌ فى القِـدَمْ ،

فتجلى الصدر نوراً وانشرحْ

ولست أدرى هل شدا غير هذا ، لأنى استلقيت على مقعد أمام باب النُّـزُل وغفوت فى هـذا الجو السَّجْسَج الليلى من شدة تعبى .

ولعل قليلا من الساعات قد مضت حين أيقظنى نافخ البوق للعربات ، وكان نفخه يتجاوب مرحاً فى أحلامى بعضاً من الوقت قبل أن أتبين جلية الأمر . وأخيراً وثبت ؛ ونور النهار يزحف على الجبال ، وعرتنى هزة من نسيم الصباح . وتذكرت فجأة أننا كنا قد عزمنا على أن نـكون فى هذه الساعة على مرحلة بعيدة فى طريقنا . فقلت لنفسى : أها ، دورى أنا اليوم فى التسلى بإيقاظ الآخرين . كم سيثب جويدو برأسه الناعسة المجللة بالضفائر حين يسمعنى فى الخارج ! لذا ذهبت إلى الحديقة الصغيرة ، تحت نافذة غرفة سيدتى ، وتمطيت فى ضوء الفجر الرائع ، وغنيت مسروراً :

إذا ما دِيكنـــا صاحا

عرفنا مقـــدم الفجر ؛

ونورُ الشمس إن لاحا

يكون النـــوم كالسحر

كانت النافذة مفتوحة ؛ ولـكن بقى كل شىء أعلاى ساكناً ، اللهم إلا النسيم يهب خلال تعريشة الـكرم الممتدة حتى داخل الغرفة : « والآن ، ما معنى هـذا ؟ » هكذا صِحت وقد تولتنى الدهشة . واندفعت إلى المنزل فى طريقى إلى الغرفة خلال الممرات

الصامتة . وهنا تمزق قلبي ؛ لأنى حين اقتحمت الباب ، كانت الغرفة قفراً : لا سترة ، ولا قبعة ، ولا حذاء ، فيما عدا القيثارة التى عزف عليها جويدو فى المساء السالف كانت معلقة على الحائط ، وعلى المنضدة فى الوسط كيس نقود ملآن وفوقه بطاقة . فحماتها قرب النافذة ، ولشدة دهشتى لم أكد أصدق عينى ، حين قرأت عليها بحروف كبيرة : « للمحصِّل » .

ولكن ماذا يفيدنى هذا الكيس ، إذا لم أستطع أن أجد أسيادى الأعزاء المَرْحى ؟ فأولجت الكيس فى أعماق جيبى ، فهوت وكأن فى بئر عميق ، حتى جعلتنى مائلا إلى ناحية . ثم انطلقت مُحْدِثاً ضوضاء كبيرة أيقظت الرجال والفتيات فى المنزل؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يفهموا ماذا أردت ، وظنوا أننى جُنِنْت . ولكنهم دهشوا كل الدهشة حين وجدوا الغرفة فى أعلى خاوية . فلم يكن منهم أحد يعلم شيئاً عن أسيادى . اللهم إلا أن إحدى الفتيات — كما استطعت أن أتبين من حركاتها وإشاراتها — قد لاحظت أن جويدو ، بعد أن غنى فى الشرفة فى المساء السالف ، صاح فجأة واندفع إلى رفيقه فى الغرفة بسرعة . كما أنها حين استيقظت مرة فى الليل سمعت صوت كدفة خيول . فأطلت تنظر من نافذتها الصغيرة فأبصرت السيد الأحدب ، الذى كان قد تحدث إلىّ كثيراً ، يختنق على صهوة جواد وسط الحقول وهو يُحْضِر بسرعة فائقة جعلته يتواثب عالياً فوق السرج ؛ فرسمت الفتاة على صدرها علامة الصليب ، لأنه تبدى كشَبح

يركب حصاناً ذا ثلاث أرجل . إننى فى حيرة من أمرى ، إذ ماذا علىّ بعد أن أفعل !

وفى تلك الأثناء كانت عربتنا منتظرة بالبـاب ، وكان الحوذى ينفخ فى بوقه قلِقاً حتى كاد أن يتفلّـق ، إذ كان عليـه أن يبلغ المحطة التالية فى وقت معلوم ، لأن كل شىء قد نظم فى مواعيد دقيقة كل الدقة . فعدوت مرة أخرى حول النزل أنادى الرسّامين . ولـكن لم يكن ثمة من جواب ؛ وتجمع أهل الـنزُل وحلقوا فى وجهى ، وراح الحوذى يلعن ، ولهثت الخيول . فلمـا بلغ بى الذهول مبلغـه ، وثبت أخيراً فى العربة بسرعة ، وأغلق الخادم الباب من خلفى ، وقعقع الحوذى سوطه ، وانطلقنا فى العالم الفسيح .

الفصل الخامس

سافرنا الآن فوق الأودية والتلال ، ليل نهار ، دون توقف . ولم يكن لدى للتفكير متسع ، لأننا حيث وصلنا كانت تنتظرنا خيول جديدة مُسْرَجة بالفعل ؛ ولم أستطع التحدث إلى الشعب ، كما أن إشاراتى لم تكن بذات غناء . وغالباً ما كان الحوذى وأنا فى النزل ، وفى أعز ساعة المأكل ، ينفخ فى البوق . وحينئذ كان علىّ أن أرمى بالشوكة والسكين وأثب إلى داخل العربة من جديد .

ومع هذا لم أكن أعرف لمـاذا لا بد أن أسافر بمثل هذه السرعة الهائلة ، وإلى أين أنا ذاهب .

وعدا هذا كان ذا النوع من الحياة مقبولا لدىّ . فقد كنت أرقد ، وكأنى على أريكة ، مرة فى هـذا الركن من العربة ، وثانية فى الركن الآخر ، وتآلفت الشعبَ والبلاد ؛ وحينما كنا نسير فى مدينة ، كنت أرتكز إلى حافة النافذة مطوىّ الذراعين وأطل خارج العربة وأشكر التحيات لمن يحييني من الناس الذين كانوا يرفعون قبعاتهم إلىّ فى لطف وأدب ، أو أحيي الفتيات المطلات من النوافذ وكأننا على معرفة قديمة وود متصل ، حتى كانوا يحدقون فى وجهى مدة طويلة ، والعجب يملأ نفوسهم .

ولكنى شعرت أخيراً بالكثير من الارتياع . ذلك أنى لم أكن قد حسبت ما بالكيس من نقود ، وكنت فى كل مكان أدفع مبالغ كبيرة لنظار المحطات وأصحاب النزل ، وقبل أن أتبين جلية الأمر ، كان الكيس خاوياً . ففكرت أولا فى خطة : هى أن أقفز بسرعة من العربة وأفر ، حالما نصل إلى غابة موحشة . غير أنى كنت أشعر بالأسف على مغادرة العربة الجميلة وتركها خاوية ، وإلا فلو أسعدنى الحظ لسافرت بها مسروراً حتى نهاية العالم .

لقد جلست فيها غارقاً فى أعماق الفكر ، ولم أكن أعرف ماذا أفعل ، حين انحرفنا عن الطريق العام . فصرخت فى وجه الحوذى كى أعرف إلى أين ذاهب هو الآن ؛ ولكن كان لى أن أقول ما شئت ، فإن الرجل لم يكن ليجيب إلا بهذه الكلمات البسيطة : « نعم ، نعم ، يا سيدى[1] » ويستمر فوق الصخور والهضاب ،

---

(١) هذه العبارة بالإيطالية .

حتى كنت أتراوح بين ركن وآخر فى العربة .

غير أن هذا الاتجاه الجديد لم يرقنى إطلاقا . فإن الطريق العام كان يمر خلال مناظر رائعة داخل الشمس الغاربة وكأنه يجرى إلى بحرمن البريق واللمعان(١) . أمامن الناحية التى انتحيناها الآن فقد كانت أمامنا جبال قفر ناحلة ذات مضائق رهيبة ، كان الظلام يخيم عليها منذ زمان طويل . وكلما توغلنا فى المسير ازدادت وحشة المكان ووحدته . وأخيرا تبدى القمر من وراء السحاب ، وأشرق فجأة بنور باهر فوق الأشجار والصخور على نحو أثار مرآه الفزع . ولم يكن فى وسعنا السير إلا ببطء خلال المضايق الصخرية الحرجة ؛ وكان ضجيج العربة الرتيب المتصل تتجاوب أصداؤه فى الليل الساجى وهى تصدم بالجدران الصخرية وكأننا كنا نسير فى قبو مقبور هائل . وكان صريرُ الماء المتصلُ يسمعُ آتياً من الشلالات العديدة المختفية عن الأنظار فى أعماق الغاب ، وكان البوم الصغير ينعب باستمرار قائلا : « تعال معى ! تعال معى ! » وفجأة تبدى لى أن الحوذى ، الذى لا حظت الآن لأول مرة أنه لم يكن لابساً لباس المهنة ، ولم يكن حوذياً بالفعل ، أقول تبدى لى أنه يتلفت فى لهفة حوله ويسوق بسرعة أكبر ؛ ولما أطللت خارج

(١) تشبيه فاتن : هــذا الطريق الذى يجرى صوب الشمس الغاربة ليغوص فى بحر من البهاء والبرقان ! وفى هذا نرى قدرة ايشندورف الهائلة على تسجيل الأحساس الخاطفة ، مما هو إرهاص للنزعة التأثرية فى الفن ، تلك التى حمل لواءها فى البدء مانيه الرسام الفرنسى ، وانتقلت من التصوير إلى الأدب .

العربة فى اتجاه مستقيم خرج راكب من الأدغال فجأة فى مواجهة خيولنا ، ثم اختفى فى الحال عن الأنظار عبر الطريق . فاضطرب على الأمر ، لأنى تبينت ، قدر ما استطيع فى ضوء القمر الساطع ، أنه هو ذلك القزم الدحداح الذى كان ينقر بمنقاره النسرى نحوى فى النزل ؛ وهو الآن يمتطى صهوة جواد . فهز الحوذى رأسه وضحك ضحكة عالية من هذا الركوب الأحمق (ركوب القزم) ، ثم التفت إلى بسرعة ، وقال كلاماً طويلا بسرعة شديدة ، كلاماً لم أفهم منه ويا لسوء الحظ كلمة واحدة ، واستمر يسوق بسرعة مطردة .

ولكنى سررت حين رأيت نورا يلمع من بعيد . وها هى ذى الأنوار تزداد وضوحاً واتساعاً ، إلى أن مررنا أخيراً ببعض من الأكواخ المُستَدخِّنة المعلقة على جانب الصخور المنحدرة كأنها أعشاش السُّنُونو . ولما كانت الليلة حارّة ، فقد فتحت الأبواب ، وكان فى وسعى أن أنظر داخل الغرف المضيئة التى قبعت فيها أنواع مختلفة من الكائنات المهلهلة البائسة كأشباحٍ حول المواقد . فسرنا خلال الليل الساجى على طريق صخرى يتسلق جبلا شامخاً . وكانت فروع الأشجار المتدلية كثيراً ما تعترض على الطريق ؛ ثم من بعدها تبدو السماء الواسعة ؛ وعلى البعد ، تبدّت دائرة ساكنة من الجبال والغابات والأودية . وفى قُنّة الجبل ، وتحت ضوء القمر الرفاف ، قام قصر واسع عتيق . «الآن ، شكراً لله !» ، هكذا صِحت وامتلأت سروراً وانتعاشاً وأنا أرى النهاية التى تنتهى عندها سياحتى هاتيك .

ولا بد أن يكون قد مر نصف ساعة قبل أن نصل قُـنّة الجبل وأبواب القصر . دخلنا برجاً كبيراً يسّاقط أطلالا . وقرقع الحوذى سوطه ثلاث مرات حتى ترددت الأصداء فى البناء العتيق وخرجتْ أسراب من غرْبان الزرع مرتاعة من كل جحر وثَـقْب وحوّمت فى شكل دوائر ، وهى تصيح فى الهواء فى ضوضاء . ثم سارت العربة خلال المدخل المظلم الطويل . وتطاير الشرر من الصخر تحت حوافر الخيول ، ونبح كلب هائل ، وأرعدت العربة على طول الممر ذى القبو . واستمرت غربان الزرع فى النعيق — وهكذا دخلنا الفِـناء الضيق المُـجَـصّص بين مناظر مريعة .

قلت لنفسى حين وقفت العربة : هذا مكان غريب . وفُتح باب العربة من الخـارج بواسطة رجل عجوز طويل معه مصباح ، كان ينظر إلىّ منفعلاً من تحت حاجبين أزَبّـين . ثم أخذ بذراعى وساعدنى على النزول من العربة وكأنى شخصية خطيرة . وأمام باب القصر وقفت عجوز شمطاء شوهاء لابسة صِداراً وتَـنورة أسودين وميدعةً بيضاء وقبعة سوداء يتدلى منها شريط حتى أنفها . وفى مِنطقتها علقت حزمة كبيرة من المفاتيح فى أحد الجانبين ، وفى الجانب الآخر كانت تحمل بيدها شَـمْعَـدانا من طراز عتيق فيه تضىء شمعتان ولم تكد ترانى حتى راحت تنحنى انحناءات كثيرة ، وتكلمت وسألت أسـئلة لا تنتهى . ولـكنى لم أفهم شيئاً ، لذا انحنيت أمامها بعض الانحناءات ، وكان يساورنى من القلق كثير .

وفى تلك الأثناء كان الرجل العجوز قد تفحص العربة داخلاً وخارجاً على نور مصباحه ، ودمدم وهز رأسه لأنه لم يجد حقائب مطلقا . أما الحوذى فقد جر العربة إلى مَـرْأب قديم مفتوح على أحد جوانب الفناء ، دون أن يسألنى راشنا . والتمست المرأة العجوز منى بكل أدب أن أتبعها وفقا لإشارتها . فقادتنى على ضوء شموعها خـلال دهليز طويل ضيق ثم صعدت بى سلماً من الحجر صغيرا . وحينما كنا نمر بالمطبـخ ، أطل من الباب المفتوح نصفَ فتح بعض الخادمات الفتيات اللأتى حَـدّقـن فىّ بشدة ، وطرفن بعيونهن خلسة نحو بعضهن البعض ، وكأنهن لم يرين من قبل فى حياتهن إنسانا . وأخيراً فتحت العجوز باباً ، فاستولى علىّ الذهول ، لأن الغرفة كانت غرفة سلطانية واسعة جميلة ، فى سقفها نقوش وتزيينات ذهبية ، وعلى جدرانها بسط رائعة رسمت بها أنواع من الصور والأزهار تفوق الحصر . وفى وسط الغرفة مائدة عليها ألوان من اللحم والخبز والسَّـلَطة والفاكهة والنبيذ والفطائر ممـا تشتهيه الأنفس وتسر القلوب . وبين النافذتين عُلّـقت على الحائط مرآة ضخمة امتدت بين الأرضية والسقف .

ولا بد لى أن أقول إن كل شىء هنـا أنعش نفسى وملأنى بالسرور العميق . فتمطيت بضع مرات ، ثم تمشيت برفق ، بخطوات واسعة فى الغرفة ذُهوبا وجَـيْئة . ولم أملك نفسى عن رؤية نفسى فى مرآة كبيرة كهذه . حقاً إن الملابس التى أعطانيها ليونارد وافقتنى كل الموافقة ، كما أنى حصلت فى إيطاليا على نظرة

مزهّوة شامخة ؛ ولكنى فيما عدا هذا كنت لا أزال ذلك الفتى الأمرد الذى ارتحل عن وطنه ، اللهم إلا قليلاً من الزغب على شفتى العليا .

أما المرأة العجوز فقد ظلت تطحن شيئاً فى فمها الخالى من الأسنان ، وبدت كأنها تمضغ حقاً طرف أنفها المفرطة فى الطول . ثم قدمت لى كرسياً ، وداعبت ذقنى بأناملها المهزولة ، ونادتنى «مسكين !(١)» ، واستمرت تنظر إلى بعيون حمراء ما كرة لعوب ، إلى حد أن كانت زوايا فمها ترتفع حتى منتصف خدها . وفى النهاية انصرفت من الباب محيية بانحناءة عميقة .

ثم جلست إلى المائدة ، وأتت خادمة شابة وسيمة تخدم علىّ ورحت أغازلها بملاحظات وإشارات عديدة لم تفهمها ، بل نظرت إلىّ مستغربة من زوايا عينيها طول الوقت لأننى كنت مغتبطاً بالأكل كثيراً . وكانت أكلة فاخرة جداً . فلما انتهيت من الأكل ونهضت من المائده ، أخذت الخادمة شمعة من المنضدة وقادتنى إلى غرفة أخرى ، كانت بها أريكة ومرآة صغيرة ، وسرير مدهش ذو أستار حريرية خضراء . فسألتها بالإشارة عما إذا كنت سأنام فيه ، فحركت رأسها بالإيجاب ؛ غير أن ذلك لم يكن متيسراً الآن ، لأنها كانت لا تزال واقفة إلى جوارى وكأنها شدت بمسار . وأخيراً أحضرت بنفسى قدحاً دِهاقاً من الخمر من الغرفة الأخرى ، وقلت لها : « ليلة سعيدة جدا » (بالايطالية) لأننى كنت قد

(١) بالإيطالية ؛ وتقال هنا فى معرض الملاطفة والمناغاة .

تعلمت من الإيطالية شيئاً بهذا القدر . ولكن حينما رأتني أفرغ قدح الخمر جرعة واحدة ، تهانفت وعلتها حمرة الخجل قليلا قليلا ، وذهبت إلى الغرفة الأخرى وأغلقت من ورائها الباب . ماذا كان مما أضحكها ، هذا ما أدهشني ، وانتهيت إلى هذه النتيجة وهي أن الناس في إيطاليا لا بد وأن يكونوا مجانين .

وكان خوفي الوحيد الآن أن يبدأ الحوذي النفخ في النفير . فأرعيت سمعي عند النافذة ، ولكن كل شيء كان في الخارج ساكناً . فقلت لنفسي : ليدْعُني إذاً ! وخلعت ملابسي ، ورقدت في السرير المدهش . فبدا لي كأني أسبح في لبن وعسل ! وخارج النافذة كانت الزيزفونة العتيقة تحف في الفناء ، وبين الحين والحين ينطلق غُراب زرعٍ فجأة من السقف ؛ وفي النهاية غرقتُ في النعاس وأنا راض قرير العين مسرور .

الفصل السادس

ما استيقظت حتى كانت أشعة الشمس الأولى تتلاعب من فوق الستائر الخضر أعلاي . ولم أستطع مطلقاً أن أتمثل في أي مكان أنا حينئذ . فقد بدا لي أنني لا زلت مسافراً في العربة ، وأنني حلمت بقصر في ضوء القمر وبساحرة عجوز وابنتها الشاحبة .

وأخيراً وثبت بسرعة من السرير ، وارتديت ثيابي ، وتلفتُّ في الغرفة صوب كل نواحيها . وحينئذ انتبهت إلى باب خفيّ لم

أنتبه إليه بالأمس ، وكان مفتوحاً قليلا ، ففتحته على سعته فرأيت غرفة صغيرة أنيقة تبدت بديعة فى أضواء الصباح الباكر ؛ ورأيت ملابس نِسْوية ملقاة بغير نظام على كرسى ، وعلى السرير ترقد الفتاة التى خَدَمت علىّ عشية الأمس . وكانت لا زالت نائمة بهدوء ، ورأسها مستندة إلى ذراعيها البيضاوين العاريتين ، وغدائرها السمراء متهدلة عليها تغطيها . «آه لو علمتُ أن الباب مفتوح !» ، هكذا قلت لنفسى ، وقفلت راجعاً إلى غرفة نومى ، مغلقاً الباب من ورائى بالمِزْتاج ، كى لا تشعر بصدمة حين تستيقظ .

ولم يكن ثمة صوت فى الخارج بعد . وكل ما هناك طائر استيقظ مبكراً وجَثَم على غصن نما من الحائط بجوار نافذتى ، وغنى أغنية فى الصباح . فقلت : «لا ، لن تخجلنى ، فتغنَّى وحدك فى هذا البكور مسبّحاً لله» . فأخذت كمانى ، التى كنت قد وضعتها عشية الأمس على منضدة جانبية . وخرجت من الغرفة فرأيت كل شىء فى القصر لايزال غارقاً فى صمت كصمت القبور ، وقطعت شوطاً وأنا أشق طريقى إلى الهواء الطلق ، سائراً وسط الممرات المظلمة .

فلما صرت أخيراً إلى خارج القصر ، وجدت نفسى فى بستان فسيح ينحدر على هيئة سطوح عريضة ، الواحد أعمق من الذى يليه ، حتى منتصف الجبل . ولكن يد العناية لم تبذل فيه وسعها : فالطرقات والمخارف كانت محشوة بالأعشاب الطويلة ، وكانت الأشكال الصناعية المرسومة فى سُوج البَقْس غير واضحة المعالم

ولا محدودة التقاطيع ، بل مدت أنوفاً طوالا أو قبعات حادة عالية في الهواء أعلاها ، وكأنها أشباح ، حتى ليرتاع المرء منها في ضوء الفجر . وعلى تمثال محطم فوق نافورة عُلّق غسيل لكي يجف ؛ وهنا وهناك في البستان قد زرعوا كُرُنباً ، يليه بعض من الأزهار العادية مغروسة بغير عناية وتتكنفها أنواع من الأعشاب ، وتجول فيها بسرعة عظايا براقة . وأنى اتجهت كنت تشاهد بين الأشجار العتيقة العالية منظراً موحشاً واسعاً ، وقُنّة جبل وراء أخرى على مدى النظر .

وبعد أن تجولت قليلا في خلال هذا المكان الموحش وفي هذا الفجر رأيت على السطح الذي تحتي شاباً فارع القامة نحيلا شاحباً يرتدي سترة طويلة سمراء ذات طرطور ، ويمشي غادياً رائحاً وذراعاه متعانقتان . وفعل كأنه لم يرني ، فجلس على مقعد من الحجر ، وأخذ كتاباً من جيبه ، وقرأ بصوت عال جداً وكأنه يعظ ويخطب، وحدّق في السماء بين حين وآخر ، ثم أسند رأسه إلى يده اليمنى على نحو حزين . فراقبته بعضاً من الزمن ؛ وأخيراً تشوّقت لمعرفة السبب في عمله كل هذه الحركات والإيماءات ، وأسرعت بالذهاب نحوه . فتنهد تنهداً عميقاً ، وحين وصلت إليه وثب فَزِعاً مرتاعاً . لقد اضطرب كثيراً ، واضطربت أنا كذلك ؛ ولم يعرف أحدنا ماذا يقول ، وظل كلانا ينحني للآخر إلى أن أبدى ظهره وولّى مختفياً بين الأدغال وهو يخطو خطوات واسعة . وكانت الشمس في تلك الأثناء قد ارتفعت فوق الأشجار ؛ فوثبت على

المقعد ، وعزفتُ على الكمان مسروراً، إلى أن تجاوبت فى الغابات الساجية أصداء . وهنا ظهرت المرأة العجوز ذات الحزمة من المفاتيح على السطح الأعلى منى ، وكانت تبحث عنى تتلهف فى جميع القصر كى تدعونى للإفطار ، فدُهِشَتْ كل الدهشة من براعتى فى العزف . وظهر الرجل العجوز الضَّجِرَة هو الآخر وأخذته الدهشة ؛ وكذلك جاءت الخادمات الفتيات ، ووقفوا جميعاً مفعمين بالدهشة ؛ ولعبت بأناملى وحركت الوتر بحماسة ومهارة ، وغنيت بعض المحطّات والتوازيع حتى تعبت .

ولكن ما أغرب أمرى فى هذا القصر ! لم يكن لدى أحد منهم أية فكرة عن متابعة السياحة . والقصر لم يكن هو الآخر نُزُلاً ، إنما هو قصر أحد الأشراف الأثرياء ، كما عرفت ذلك من إحدى الخادمات . وحينما كنت أسأل المرأة العجوز ما اسم هذا الشريف وأين يعيش ، كانت تكتفى بالابتسام كما فعلت فى مساء اليوم الأول لوصولى ، وتدير عيونها وتتلاعب بها بطريقة ماكرة خبيثة ، وكأنها فقدت صوابها . وإذا شربت فى يوم حار زجاجة كاملة من الخمر ، كانت الخادمات الفتيات تتهانف باسمة وهى تحضر لى أخرى ؛ ولما طلبت بالإشارة ذات مرة غليوناً من التَّبْغ ، انطلق الكل يضحك ضحكا عالياً أحمق . ولكن أعجب ما فى الأمر كله هو تلك الموسيقى التى كانت تعزف دائماً فى الليالى المظلمة تحت نافذتى . لقد كانت نغمات خافتة متفرقة على قيثارة . وخيل إلىَّ ذات مرة أن إنساناً يهتف قائلا : « پست ! پست ! » (مجرد

همس) ؛ فوثبت بسرعة من سريرى ، وأطـللت برأسى من النافذة وناديت : « هـلو ! من هناك تحت ؟ » ولـكن لم يكن ثمة من جواب ، ولم أسمع غير حركة سريعة فى الأدغال . ونبح الـكلب الضخم فى الفـناء مرة أو يزيد حين سمع ضوضائى ؛ ثم صار كل شىء ساكناً ، ولم أسمع الموسيقى بعد مرة أخرى .

وعدا هذا كانت حياتى هنـا فى القصر كأسعد ما يمكن أن تكون حياة ، حياة يتمنى كل من فى الدنيا أن يحياها . آه ، هذا الحاجب الطيب ! لقد كان يعلم عم يتحدث حين قال إن الأعناب فى إيطاليا تنمو فى فم الإنسان . لقد عشت فى هذا القصر المتوحد كأمير مسحور . وحيثما يممت كان الناس يظهرون لى منتهى الإجلال ، وإن كانوا يعلمون أننى لا أملك فى جيبى مليما واحداً . ولم يكن لى إلا أن أقول : هاتوا الطعام ، وإذا بألوان الأطعمة تقدم لى فى الحال ، من أرز ونبيذ وشمّـام وجُبن بَرْماوى[1] . ونعمت بالأطعمة ، ورقدت فى سرير وثير فاخر وتنزهت فى البستان ، وعزفت على الـكمان ، وأعنت البستانى فى بعض الأحيان . وكثيراً ما كنت أرقد فى الحشائش العالية فى البستان ، وأرى الشـاب النحيل (وقد كان طالباً ومن ذوى قربى الرجل العجوز ، وكان يقضى إجازته هنا) يتجول من حولى على هيئة دائرة وكأنه ساحر ، مدمدماً بكلمات من كتابه طول الوقت ، كلمات جعلتنى أنام . ومرت الأيام تلو الأيام ؛ وفى النهاية بدأت أتبرم وأحزن بسبب

(١) نسبة إلى مقاطعة برما ، على نهر البو ، فى شمال إيطاليا .

هذا المأكل الطيب والمشرب الفاخر ! وأعقب هذا فى مفاصلى امذلالا بسبب فراغى المستمر ، وخيل إلىّ أننى سأتحطم من فرط الكسل[1] .

وفى ذلك الحين كنت جالساً بعد ظهر يوم ثقيل على غصن فى أعلى شجرة باسقة قائمة عند صخور الجبل ، وهَدْهَدَتْ نفسى على الأفنان بتراخ فوق الوادى العميق الساجى . وكانت أسراب النحل تدوّى بين الأوراق من حولى ؛ وعدا هذا كان كل شىء صامتاً صمت القبور ؛ فلا إنسان يرى فى ذرى الجبال ، وفى الوادى تحتى رقد البقر فى العشب الطويل . وبعد حين تردد من بعيد رنين بوق عربات فوق قمة الجبل المغطاة بالغابات ، كان فى البدء لا يكاد يسمع ، ثم ازداد وضوحاً وارتفاعاً . فذكّرنى هذا بأغنية قديمة تعلمتها منذ زمان بعيد وأنا فى طاحونة أبى من عامل رحالة ، فرحت أغنى :

من يَطُفْ بالعالمين
فليرافقه الحبيبْ ؛
سَيُسَرُّ الآخرون
دون أن يدعوا الغريب

قُنّتى السوداء ماذا
عن عهودى تعلمين ؟

---

(١) لاحظ روح القلق المتوثب الدائمة عند هذا الرومنتيكى !

عن بلادى عِبْر هذا ؟
ذاب قلبي بالحنين !

لذتى أرقب نجما
رَفَّ إذ أغدو إليها
بهجتى أسمع دوما
بلبلا يشدو لديها

فى صباحى كل غَنِّي !
فيه ، فى صمت وحب
أرتقى الطود ، أُجَنِّي
وطنى من كل قلبى !

وخيل إلى كأن صاحب البوق يساير أغنيتى على البعد . وكلما أمعنت فى الغناء ازداد اقترابها منى شيئاً فشيئاً إلى أن سمعتها من فوق فى فناء القصر . فوثبت نازلا بسرعة من أعلى الشجرة . فرأيت المرأة العجوز مقبلة على من القصر ومعها طرد مفتوح بين يديها ، وقالت : « هنا لك شىء أنت أيضاً » ، وأعطتنى من الطرد خطاباً صغيراً أنيقاً ، لم يكن عليه عنوان ، ففتحته بسرعة . وفجأة احمر وجهى كالفاويا ، وخفق قلبى بشدة إلى درجة أن العجوز تنبهت إليه ، لأن الخطاب كان من — من سيدتى الحسناء العزيزة ، التى رأيت من قبل خطها مراراً على مذكرات أرسلتها إلى المشرف الإقطاعى . وكان موجزاً كل الإيجاز : « كل شىء الآن على ما يرام

من جديد ، والعقبات كلها زالت . وهأنذا أنتهز هذه الفرصة سريا كى أكون أول من يرسل إليك هذه الأنباء السارة . تعال ، عُد بسرعة . كل شىء هنا قفر ، ولا قبل لى باحتمال الحياة هنا بعد أن غادرتنا . أوْريليه » .

فلما قرأت الخطاب غمرت عيناى بشراً واهتزازاً وسروراً . وتولانى الخجل من إظهار شعورى أمام المرأة العجوز التى كانت تهانف بمكر من جديد ، وانطلقتُ كالسهم إلى أكثر زوايا البستان وُحشة وإيحاشاً . وهناك ألقيت بنفسى على الحشائش تحت أغصان شجرة كستنا وقرأت الخطاب من جديد مرات ومرات. لحفظت الكلمات عن ظهر قلب ، وكانت أشعة الشمس تنفذ خلال الأوزاق إلى الحروف حتى تبدت وهى تتراقص عليها أمام عينى كأنها براعم ذهبية ، وحمراء ، وصافية الخضرة . ثم قلت لنفسى : أليست متزوجة على كل حال ؟ وهل كان الضابط الغريب أخاها ، أو لعله مات ، أو لعلى أنا مجنون ، أو . . . وأخيراً صحت : « هذا كله لا يهم » ! ووثبت : « من الواضح الآن أنها تحبنى ، أجل ، هى تحبنى ! » .

فلما زحفت خارج الخمائل من جديد كانت الشمس مُطْفِلة ، والسماء حمراء وردية ، والطيور تغنى بالغاب فى حبور ، والأودية مليئة بفيض النور ؛ ولكن ما فى قلبى كان أجمل وأبهج ألف مرة ومرة .

فناديت فى القصر أن ائتونى بعشائى فى الحديقة هذا المساء ،

وطلبت إليهم أن يأتوا جميعاً — المرأة العجوز ، والشيخ الضجرة والفتيات — ويجلسوا معي إلى المائدة . وأخذت كمانى وعزفت عليها فى الفترات بين الأكل والشراب . فكانوا جميعاً فى سرور ؛ وتألق جبين الشيخ وشرب قدحاً من بعد قدح ، وتكلمت المرأة العجوز باستمرار ، والله وحده يعلم عم تحدثت ؛ وبدأت الفتيات ترقص سويا فوق العشب . وفى النهاية أتى الطالب الشاحب يحدوه حب الاستطلاع قادماً من القصر ، وألقى نظرات ساخرة على المنظر ورام المُضى . ولكنى أسرعت بالنهوض ، وقبل أن يتبين ما كان يجرى أمسكت بتلابيب سترته الطويلة ورقصت معه الرقصة الدائرية (الفلتس) . وهو قد بذل مجهوداً كبيراً للرقص جيداً وبطريقة عصرية ، وتواثب بقوة وحرارة حتى تصبب العَرَق على وجهه ، وتطايرت ذيول سترته حولنا كالعجلة ، وإبان هذا كله كان ينظر إلىّ مستطلعاً بعيون مخالسة حتى بدأت أرتاع منه . وفجأة تركته يمضى .

وكان بود المرأة العجوز أن تعرف ماذا كان فى الخطاب ، ولماذا كنت اليوم فرحاً فجأة . ولكن المسألة كانت على نحو من التعقيد لا يسمح بشرحها لها . فاكتفيت بالإشارة إلى بعض الكراكى التى كانت طائرة من فوقنا فى أعلى السماء وقلت : « لا بد لى من الرحيل الآن كهذه ، إلى مكان بعيد ، بعيد جداً ! » حينئذ فتحت عينيها المرمتين الجافتين بأقصى سعتهما ، وحملقت

كالباسليق[١] أولا إلىّ وثانياً إلى الرجل العجوز . وبعد هــذا لاحظت أنني حيثما يممت كانا يهزان رأسيهما ويتحدثان سويا حديثاً نشيطاً كانا في أثنائه ينظران إلىّ أحياناً عن عُــرُض .

فأدهشني هذا . وفكرت فيما عسى أن يكونوا قد بيّتوه لي ؛ فهدأ هذا من روعي ، ولمــا كانت الشمس قد غربت من زمن غير قصير ، تمنيت لهم جميعاً ليلة سعيدة وذهبت إلى غرفة نومي مُفــكراً .

أما في داخل نفسي فقد كنت سعيداً متلهفاً ، حتى إني بقيت أذرع الغرفة ذاهبا آيباً طوال ساعات . وفي الخارج كانت الريح تزجي سحباً سوداء ثقيلة فوق برج القصر ، فــكان من المستحيل تقريباً أن ترى قُــنَن أقرب الجبال في هذا الظلام الدامس . وخيل إلىّ أنّي أسمع أصواتاً في البستان ، فأطفأت المصباح واستندت إلى النافذة . وبدا أن الأصوات تقترب ، ولــكنها كانت تتحادث بكل هدوء وسكينة . وفجأة ألقى مصباح صغير ، كان يحمله أحد هؤلاء الأشباح تحت معطفه ، شعاعاً طويلا ، فتعرفت المشرف العجوز الضّــجرة ، والمرأة العجوز المشرفة على القصر . وتألق النور على وجه المرأة العجوز التي لم تَــبْد لي من قبل في صورة أبشع من هذه ، كما تألق على سكين طويلة كانت تحملها في يدها . ولاحظت كذلك أنهما كانا ينظران علوا إلى نافذتي . ثم قرّب المشرف معطفه حول جسمه ، وسرعان ما خيم الظلام والسكون من جديد .

---

(١) نوع من الحيات يرد ذكره في الأساطير . ويقال إن لعينيه القدرة على القتل بمجرد النظر . ومن هنا جاء التشبيه بعيونها .

فعجبت وتساءلت عم يفعلان فى البستان فى مثل هذه الساعة .
وأصابتنى الرعدة حين تذكرت كل قصص القتل التى سمعتها من قبل ، عن ساحرات ولصوص تقتل بنى الإنسان كى تأكل قلوبهم.
وبينا كانت هذه الخواطر لا تزال تجول فى نفسى سمعت وقع أقدام على السلم أولاً ، ثم على طـول الدهليز ، قادمة بخفة وسكون نحو باب غرفتى ، وفى الآن نفسه خيل إلى أنى أسمع أصواتا تتهامس .
فانطلقت بسرعة إلى نهاية الغرفة البعيدة خلف منضدة كبيرة عزمت على الإمساك بها أمامى حالما يتحرك شيء وينقض على الباب .
ولـكنى اصطدمت فى الظلام بكرسى ، مما أحدث ضجة مخيفة .
وفجأة كان كل شيء فى الخـارج هادئا . فأصغيت من وراء منضدتى ، وحدقت ناحية الباب وكأنى أريد اختراقه حتى كادت عيناى أن تخرجا من رأسى . فلما بقيت هكذا ساكنا بعضاً من الوقت ، إلى درجة أن يكون فى مقدور المرء أن يسمع صوت ذبابة تتحرك على الجدران ، سمعت من الخارج أحداً يضع مفتاحاً فى ثقب الباب بكل خفة . وكنت على وشك الهجوم بمنضدتى ، حين سمعت المفتاح يدار ثلاث مرات ، ويؤخذ بعناية من جديد ، وسمعت وقع أقدام تمشى بخفة على طول الدهليز وتهبط على السلالم .

فتنفست تنفساً عميقا . وقلت لنفسى : أوه ، أوه ، إنهم قد أغلقـوا عليك الباب حتى أن نومى سيكون ملائما لهم . وبسرعة فحصت الباب ، فوجدتنى مصيباً فيما سمعت ، فإن الباب قد أغلق بالمفتاح ، وكذلك أغلق الباب الآخر الذى نامت وراءه الخادمة

الشاحبة اللطيفة . وإن شيئا من هذا لم يحدث مطلقاً منذ أن عشت في القصر .

هأنذا هنا إذن سجين في الغربة ! ولعل السيدة الحسناء واقفة الآن عند نافذتها تنظر عبر البستان الساجي إلى ناحية الطريق العام ، كي ترى ما إذا كنت أمر أمام بيت المسكوس ومعى كمانى ؛ وكانت السحب تمر بسرعة خلال السماء ، والزمن يمضى — وأنا لا أستطيع الرحيل من هنا ! آه ، لقد كنت بائساً شقيا ، ولم أكُنْ أعرف ماذا أعمل . وفى كل مرة تحف فيها ورقة فى الخارج ، أو يَصْأى فيه فأر تحت الأرضية ، كنت أظن أن المرأة العجوز قد زحفت إلى داخل الغرفة من باب خفي مستور وأنها تقترب منى بسكون ومعها سكينها الطويلة .

فلما جلست على سريرى وأنا على هذه الحال من القلق والبلبال سمعت من جديد بعد فترة طويلة من الانقطاع ، الموسيقى الليلية التى كنت أسمعها من قبل . وما كدت أسمع النغمة الأولى من القيثارة حتى كان ذلك بمثابة شعاع من ضوء النهار ينير داخل نفسى . ففتحت النافذة وناديتُ بخفة قائلا إننى لا زلت مستيقظا . فجاء الجواب من تحت يهمس : «بِسْت ، بِسْت! » . فلم أتوقف طويلا للتفكير ، بل وضعت الخطاب وكمانى فى جيبى ، والقيت بنفسى من النافذة ، وانحدرت على الجدار العتيق المحطم ، ممسكاً بالنبات النامى فى الشقوق ؛ غير أن بعض الحجارة تهشم ، فبدأت أنزلق بسرعة تزداد كثيراً إلى أن هبطت على الأرض بثبات واقفاً

على قدمى حتى أصيب بخى بارتجاج .

ولم أكد أصل البستان بهذه الطريقة حتى عانقنى شخص بقوة شديدة شدة جعلتنى أصيح . ولكن صديقى الكريم أسرع فوضع إصبعه على فمى ، وأخذنى من يدى ، وقادنى إلى الفناء . وهنا تبين لى من شدة الدهشة أنه الطالب الطويل العزيز ، حاملاً قيثارته مشدودة إلى عنقه بشريط حريرى واسع . فأفهمته بأسرع ما يمكن أننى أريد الخروج من البستان . وبدا هو كأنه يعرف هذا فعلاً ، فقادنى خلال كل الطرق السرية الخفية إلى أقصر باب فى جدار البستان . ولكن ها هو ذا الباب محكم الإغلاق ! غير أنه قد عمل حسابا لهذا أيضا ، فأخرج مفتاحاً كبيراً من جيبه ، وفتحه بعناية .

وخرجنا إلى الغابة وأردت سؤاله عن خير طريق لأقرب بلدة ، فرأيته يركع فجأة على إحدى ركبتيه أمامى ، رافعاً إحدى يديه فوق رأسه ، وراح يلعن ويسب بدرجة مخيفة ترتاع منها الأسماع . فلم أفهم شيئا مما أراد ، إنما كنت أسمع باستمرار هذه الكلمات : إلهى ، قلب ، حب ، حرارة ! (بالإيطالية) . ولكنه حين بدأ ينعب بسرعة تجاهى جاثيا على ركبتيه ، كان المنظر مريعاً مفزعاً كل الإفزاع ؛ ورأيت أنه مجنون تماماً ، ففررت إلى أكثف أجزاء الغابة ، دون أن ألتفت من حولى .

وسمعت الطالب يصيح من ورائى بطريقة وحشية غاضبة .. وسرعان ما تجاوب صوت أجش آخر من القصر . ففكرت فى

أنهم لا بد سيبحثون الآن عنى ، لم أكن أعرف الطريق ، والظلام مخيم دامس فلربما أقع فى أيديهم من جديد . لذا تسلقت حتى ذروة شجرة صنوبر عالية ، وانتظرت فرصة لفرارى .

ومن هناك كان فى وسعى أن أسمع صوتا وراء الآخر يستيقظ فى القصر . وتبدى مشعل أو مشعلان ألقيا بنور وحشى أحمر فوق جدران القصر العتيقة وخلال الليل البهيم . فوضت أمرى إلى الله ، لأن الضجيج كان يعلو ويقترب شيئاً فشيئاً . وفى النهاية اندفع الطالب ماراً بجذر الشجرة التى كنت فوقها وهو يحمل مشعلا ، وذيول سُتْرته تتطاير من ورائه فى الهواء والريح . ثم بدا كأنهم سائرون جميعاً إلى الجانب الآخر من الجبل ، ورنّت الأصوات متباعدة قليلا قليلا ، وعزفت الريح خلال الغاب الساجى . فهبطت من أعلى الشجرة بسرعة وعدوت مبهور الأنفاس فى أعماق الليل والوادى .

الفصل السابع

غدوت فى سيرى مسرعاً أواصل الليل بالنهار . وكنت أسمع لمدى طويل أهل القصر يتبعوننى بندآءاتهم ومشاعلهم ومُديّهم الطويلة . وفجأة اكتشفت أننى على قيد بضعة أميال من روما . فاستولى علىّ السرور ، لأنى سمعت حين كنت طفلاً قصصاً عجيبة عن روما الجميلة الرائعة ؛ وفى أماسى الأحد وأنا راقد أمام الطاحونة

فوق العشب ، كنت أتصور أن روما لا بد أن تكون مثل السحب الغادية من فوق ، وبها تلال وأغوار بديعة بجوار بحر أزرق ، ولها أبواب من الذهب عالية ، وأبراج متألقة ، وملائكة فى ثياب ذهبية يغنون . والليل أقبل من جديد ، والبدر أضاء فى روعة ورواء ، حين خرجت أخيراً من غابة على جانب الجبل ، ورأيت المدينة فجأة ماثلة أمامى من بعيد . — والبحر يتألق من مسافة شاسعة ، وقبة السماء الواسعة ترف وتبرق بنجوم لا يبلغها الحصر ؛ والمدينة المقدسة ، التى لم يكن يبدو منها غير كسف من الضباب ، ترقد تحتها كالليث الوسنان على الأرض الساكنة ، وأحاطت الجبال كأنها عمالقة تحرسها .

وصلت أول ما وصلت إلى مرج واسع موحش ، أغبر ساج كالقبر . اللهم إلا حائطا مهدماً أو نباتاً زاحفاً غريبا جافا هنا وهناك ؛ وأحيانا طائر ليلى يطير فى الهواء ؛ وكان رفيقى فى هذه الوحدة ظلى الأسود الطويل . ويقال إن مدينة قديمة جداً قد دفنت هنا والإلـهة ڤينوس ، وإن الكفار الأقدمين ينهضون أحيانا من قبورهم ويمشون على الحشائش فى الليالى الساكنة ، ويضلون المسافرين عن سواء السبيل . ولكنى سرت قدماً ، ولم أدع الفرصة لشىء كيما يهاجمنى . لأن المدينة كانت تبزغ أمامى أوضح وأبدع ، والقصور الشاهقة ، والأبواب العالية ، والقباب الذهبية تتألق رائعة فاتنة فى ضوء القمر ، وكأن الملائكة فى ثيابهم الذهبية تقف عليها وتغنى لى فى الليل الساجى .

ومررت أولا ببضعة بيوت صغيرة ، ثم خلال بوابة فخمة إلى مدينة روما الشهيرة . وكان القمر يضيء من خلال القصور كأننا فى وضح النهار ، ولكن الطرقات كانت خالية إلا من نفر من الكائنات البائسة الراقدة كالجثث على المدارج المرمرية ، تنام فى هواء الليل الدافئ . وكانت النافورات تصدح هامسة فى الميادين الساكنة ؛ والبساتين تحف بأوراق أشجارها ، وتملأ الهواء بالروائح المنعشة .

وبينما كنت أتهادى سائراً ، قد أذهلنى السرور وضوء القمر والشذى العاطر عن معرفة أى طريق أتخذ ، سمعت من أعماق حديقة صوت قيثارة ، فقلت لنفسى : إلهى ، لا بد أن يكون الطالب المجنون ذو السترة الطويلة قد تبعنى سرا ! وبدأت سيدة تغنى فى البستان بصوت كله عذوبة . فوقفت ساكناً وكأنى مسحور ، لأن هذا الصوت صوت سيدتى الحسناء ، والأغنية هى بعينها تلك التى كانت كثيراً ما تغنيها فى القصر على حافة النافذة المفتوحة .

حينئذ تذكرت أيامى السعيدة الماضية ، فتأثر قلبى إلى درجة أنى رغبت فى البكاء بعبرات مرة ، وأنا أذكر البستان الهادئ أمام القصر فى الفجر الباكر ، وكيف كنت سعيداً هانئاً وراء خميلتى إلى أن دخلت الذبابة الحمقاء فى أنفى . فلم أتمالك بعد نفسى . فتسلقت الحلية المذهبة فوق الباب ذى الفتحات وهبطت إلى الحديقة التى انبعث منها الغناء . ثم لاحظت حينئذ أن وجهاً أبيض

طويلا يحدق فىّ من مسافةٍ من وراء شجرة حور ؛ وراقبنى مدهوشاً وأنا أتسلق الأبواب . ثم انطلق خلال الحديقة الظلماء إلى المنزل بسرعة لم أكد أتبين معها حركة أقدامه فى الظلام . فصحت : « إنها هى بعينها ! » . وخفق قلبى سروراً ، لأنى تعرفتها من أقدامها الصغيرة السريعة . ولكن الشىء الذى يؤسف له هو أننى جرحت قدمى اليمنى وأنا أثب من فوق البوابة ، لأننى اضطررت أن أتوقف وأمرُس ساقى مرة أو مرتين قبل أن يكون فى وسعى العدو نحو المنزل . ولكنهم فى تلك الأثناء استطاعوا إغلاق الأبواب والنوافذ . فقرعت الباب بضراعة وخشوع ، ثم أرعيت سمعى ، وقرعت من جديد . وحينئذ بدا وكأن همساً ونأمة خفيفة يدوران فى الداخل ؛ أجل ، لقد خيل إلى مرة أن عينين براقتين تنظران من خلال شعرية النافذة . ثم سكن كل شىء .

قلت لنفسى إنها لا تعرف أنه أنا ؛ فأخذت كمانى التى أحملها معى دائماً ، وتمشيت ذهاباً وجيئة على الطريق المار أمام المنزل وعزفت عليها ، عزفت وغنيت أغنية السيدة الحسناء ، كما عزفت وغنيت كل الأغانى التى اعتدت أن أغنيها فى الليالى الصيفية الجميلة فى بستان القصر ، أو وأنا جالس على المقعد أمام منزلى (منزل المكوس) كيما تتردد إلى بعيد وتصل إلى نوافذ القصر . ولكن هذا كله مضى من دون جدوى ؛ فلا إشارة ولا صوت أتى من المنزل . لذا وضعت كمانى فى النهاية وجلست على مَدْرَج الباب ، لأنى كنت متعباً جداً من سيرى الطويل . كان الليل دافئاً ،

وبراعم الأزهار أمام المنزل تعبّق بأزكى العطور ، ونافورة تصاعد مياهها برفق ، وتهبط فى البستان . فحلمت بأزهار زرقاء سماوية ، وبأماكن جميلة متوحدة قاتمة الخضرة تجرى من تحتها الأنهار ، وتغنى فيها الطيور الزاهية فى روعة وسحر ؛ حتى استولى على النعاس .

واستيقظت وأنا أرتعد فى هواء الصباح . وكانت الطيور قد استيقظت وغنت فى الأشجار من حولى ، وكأنها تحسبنى أبله . فوثبت بسرعة ونظرت فيما حولى ، فرأيت النافورة لا تزال تقذف بمياهها ؛ ولكن لم ينبعث من المنزل صوت . فنظرت خلال شعرية نافذة خضراء إلى داخل إحدى الغرف ، فرأيت أريكة ومنضدة مستديرة كبيرة مغطاة بفرش رمادى ، والكراسى قائمة من غير نظام فى الغرفة ؛ ولكن الشمريات الخارجية لكل النوافذ كانت مقفلة ، وكأن المنزل مهجور من أهله منذ سنوات . فشعرت بخوف حقيق من المنزل الخالى ، والبستان المهجور ، ومن الوجه الأبيض الذى رأيته عشية الأمس . وبدون أن ألتفت ، عدوت خلال الأشجار الساكنة والمخارف ، وصعدت من جديد فوق البوابة . وهناك جلست وكأنى مأخوذ بالفتنة والسحر ، وأنا أنظر إلى المدينة المحبوبة من البوابة العالية . وسطعت شمسُ الصباح ، وتألقت فوق السطوح وفى الطرقات الساكنة الطويلة حتى إننى لم أملك نفسى من الهتاف عالياً وقد طفح بى السرور ؛ ثم وثبت فى الطريق .

ولكن إلى أين أذهب فى هذه المدينة الغريبة الكبيرة ؟

خصوصاً وأن الليلة المضطربة والأغنية التى غنتها السيدة الحسناء عشية الأمس كانتا تدوران فى رأسى . فجلست على الصخور التى حول النافورة القائمة فى وسط الميدان ، وغسلت عيونى بالماء الصافى ، وغنيت :

إن أكن طيراً عرفتُ ،
مَنْ أغنيه النشيد ؛
أو يكن لى الريشُ طِرتُ ،
عارفاً دَرْبى السديد .

« ها ! أيها الزميل الطروب ، إنك تغنى كقبّرة فى الفجر ! »
هكذا قال شاب اقترب من النافورة بينا كنت أغنى . فبدا لى سماعى للغة الألمانية هنا بطريقة غير منتظرة كأنى أسمع نواقيس كنيسة قريتنا تدق فى صباح سبت . فصِحْت واثباً مفعما بالسرور : « مرحباً بك يا مواطنى العزيز ! » فتبسم الشاب ونظر إلى سفلا وعلواً وقال : « ولكن ماذا تفعل هنا فى روما ؟ » . فلم أعرف بالدقة بماذا أجيب ، لأنى لم أعْنَ بأن أقول إننى آت هنا جرياً وراء سيدتى الحسناء . غير أنى أجبت فى النهاية : « أوه ! إنما أنا سائح يجوب الأصقاع » . فأجاب الشاب ضاحكا بصوت عال : « أوه ! هو ، أهذه إذن مهنتك ! إنها هى أيضاً مهنتى ؛ أن أرى العالم ، ثم أرسم شيئاً » . فتعجبت قائلا : « أرسام أنت ! » وامتلأت سروراً مفكراً فى ليونارد وجويدو . ولكنه لم يدع لى فرصة لأن أقول أكثر مما قلت ، بل قال : « أظن أنك لا تمانع فى أن تأتى معى

وتفطر ، وسأعمل لك صورة إجمالية ستكون سـارة حقاً » .
فقبلت الدعوة بكل سرور وتجولت مع الرسام خلال الطرقات الخالية التى لم يفتح فيها غير بعض الحوانيت ، وهنا وهناك بدا زوج من الأذرع البيضاء من نافذة ، أو وجه ناعس ينظر فى نسيم الصباح .

فقادنى هنا وهناك لمدة طويلة ، خلال ممرات مختلطة ضيقة مظلمة ، حتى دخلنا بيتاً أَدْخَن . وهنا صعدنا سـلماً مظلماً امتد طويلا عالياً ، وكأننا نريد أن نرق السماء . وأخيراً وقفنا أمام باب تحت السطح مباشرة ، وبدأ الرسام يبحث بحماسة وحرارة فى كل جيوبه . ولـكنه كان قد نسى قفل الباب بالمفتاح هذا الصباح ، وكان المفتاح بداخل الغرفة ، لأنه كما أنبأنى فى الطريق قد نهض مبكراً قبل الفجر وغدا يرى المدينة قبل شروق الشمس . فهز رأسه ودفع الباب مفتوحاً بقدمه .

كانت الغرفة فسيحة طويلة كل الطول ، وفى وسع المرء أن يرقص فيها لولا أن كل الأمتعة قد تراكمت على الأرضية . فهناك أحذية وأوراق وملابس وأوانٍ زخرفية مقلوبة ، والـكل مختلط أشنع اختلاط ؛ وفى وسط الغرفة صِقالة واسعة من هذا النوع المستخدم فى قطف الـكمثرى ، وإلى الحائط استندت لوحات كبيرة ؛ وعلى منضدة خشبية طويلة طبق فيه خبز وزبد إلى جانبهما معجون رسم كبير . وبجانبه زجاجة نبيذ .

فصاح الرسام : « والآن ، ابدأ الأكل ، أيها المواطن ! »

ورغبت فى أن أقطع قطعة من الخبز والزبد فى الحال ، ولـكن لم تكن هناك سكين . وكان علينا أن نخشخش بعضاً من الزمن بين الورق الموضوع على المائدة قبل أن نجد سكينا تحت حزمة كبيرة . وحينئذ فتح الرسام النافذة ، فدخل نسيم الصباح العليل طروباً فى الغرفة كلها ؛ ومنها كان فى وسع المرء أن يتملى بمنظر رائع فوق المدينة حتى التلال حيث تألقت شمس الصباح فى بهجة فوق بيوت وعرائش كروم . وصاح الرسام وهو يشرب من زجاجة التبيذ التى أعطانيها بعد : « على سلامة وطننا الأخضر المنعش هناك عبر الجبال ! » فأجبت تحيته ، وحييت فى أعماق قلبي ألف مرة وطنى العزيز على البعد .

وفى تلك الأثناء كان الرسام قد دفع الصقالة الخشبيـة قرب النافذة ، وعليها ورقة كبيرة شدت بدبوس ، رُسم عليها بطريقة إجمالية ، ولـكنها دقيقة بارعة ، كوخ عتيق ، على هيئة خطوط سود ، فيه تجلس العذراء بوجه جميل ، رائع ، وإن علاه الحزن ؛ وعند قدميها على سرير من القش صغير يرقد الطفل يسوع ، عليه سيما اللطف والود ، ولـكن عينيه نجلاوان حادّتان . وفى خارج الـكوخ عند الوصيد جثا راعيان صبيان بعصا وجراب — فقال الرسام : « انظر ! إنى أريد أن أرسم رأس ذلك الراعى كرأسك ، وحينئذ يصير وجهك معروفاً عند الناس ، وإن شاء الله سيسرون من اللوحة ومن رأسك بعد أن ندفن ونركع فى خشوع أمام الأم المقدسة وابنها كهذين الفتيين ، أقول سيُسرّون بعد هذا بهذا

لزمان طويل » . وهنا أمسك بكرسى قديم ؛ ولـكنه لم يكد يرفعه حتى أتى نصفه فى يديه . فركّبه من جديد ، ودفعه أمامه قُبالة الصقالة ، وكان علىّ أن أجلس عليه ، مشيحاً بوجهى إلى ناحية الرسام بطريقة جانبية . وبقيت جالساً على هذا النحو بضع دقائق دون تحرك . ولـكنى لست أدرى لـماذا لم أحتمل هذا طويلا ، فـكنت أتحرك هنا وهناك . وفضلا عن هذا كان ثمة مرآة قديمة نصف مكسورة معلقة فى مواجهتى مباشرة ؛ وكان على أن أنظر فيها ؛ وبينا كان يرسم كنت أصنع كل أنواع الحركات والتقطيبات من شدة ملالى . فضحك الرسام لما لاحظ هذا وأشار إلى حينئذ بيده أن أنهض . وكان وجهى على الراعى قد اكتمل رسمه ، واضحاً كل الوضوح حتى كنت شديد الاغتباط بنفسى .

واستمر الرسام يرسم فى نشاط والهواء عليل ، مغنياً أغنية ، ومحدقاً بين حين وآخر فى المناظر البديعة المجاورة . ولـكنى اقتطعت لنفسى جزءاً من الخبز والزبد وذرعت الغرفة ذاهباً آيباً وأنا آكل وأنظر إلى الصور المسندة إلى الحائط . وقد سرتنى من بينها اثنتان على وجه التخصيص . فسألته : « وهل أنت أيضاً الذى رسمت هاتين ؟ » . فأجاب : « لا ، أبداً ؛ إنهما من رسم الأستاذين المشهورين ليوناردو دافنتشى وجويدو رينى ، أو لا تعرف عنهما شيئاً ! » فضايقتنى الـكلمات الأخيرة فقلت بكل برود : « أوه ! إننى أعرف هذين الأستاذين كما أعرف جيبى » . فدهش منى وسأل مسرعاً : « كيف كان ذلك ؟ » فقلت : « نعم ، ألم أسافر معهما

ليل نهار ، راكبين وسائرين على الأقدام ، وفى عربة إلى أن صفرت الريح فى أذنىّ ، وفقدتهما سويا فى نزل ، ثم سافرت وحدى على عربتهما إلى أن طارت العربة المسكينة فوق صخور عاتية على عجلتين و . . . » « اوهوْ » ، هكذا قاطعنى ونظر إلى نظرته إلى مجنون . ثم قهقه عالياً وصاح : « آه ، لقد بدأت أفهم الآن ، لقد سافرت مع رسامين اسمهما جويدو وليونارد ؟ » فلما أجبت بالإيجاب وثب بسرعة ونظر إلى عَـلْواً وسُـفْلاً من جديد ، وقال : « أظن على كل حال أنك تعزف على الكمان ؟ » فهززت جيبى حتى رنت الكمان . فواصل كلامه قائلا : « حسناً ، إذن . لقد كانت هنا كونتيسة ألمانية تبحث فى كل ركن من أركان روما عن هذين الرسامين وموسيقارشاب معه كمان » . فصحت منفعلا : « كونتيسة شابة من ألمانيا ؟ وهل الحاجب معها ؟ » فأجاب الرسام : « لا أعرف شيئاً عن هذا ؛ وإنما أنا رأيتها مرة مع واحد من أصدقائها لا يعيش فى المدينة . أو تعرف السيدة ؟ » واستمر فى حديثه وهو يرفع الغطاء التيلى عن صورة كبيرة موجودة بأحد أركان الغرفة . فبدا لى وكأن النوافذ قد فتحت فجأة فى غرفة مظلمة ، وسطعت شمس الصباح على عيونى — ذلك أنها كانت صورة سيدتى الحسناء ؛ كانت واقفة فى حديقة مرتدية ثوباً من المخمل الأسود ، وإحدى يديها ترفع النقاب عن وجهها ، وبنظرة ساجية هانئة حدقت فى الأفق الواسع البديع . وكلما تأملت فيها ، اتضح لى أن البستان بستان القصر ، وأن الأزهار والأغصان كانت تتماوج برفق فى

النسيم ، وعلى البعد رأيت منزلى الصغير والطريق العام من خلال الأشجار ، ونهر الدانوب والتلال الزرقاء النائية .

« إنها هى ، إنها هى ! » هكذا قلت ، والتقطت قبعتى ، وخرجت مندفعاً من الباب ، منحدراً على السلالم الطويلة ، ولم أكد أسمع إلا نداء الرسام المندهش وهو يدعونى إلى العودة قرب المساء ، فلعلنا نستطيع أن نستجلى حينئذ حقيقة الأمر بشكل أوضح .

الفصل الثامن

هُرعت خلال المدينة كيما أعود إلى المنزل الذى سمعت فيه عشية أمس السيدة الحسناء وهى تغنى . وقد كانت الطرقات عامرة بالناس والحركة ، والسيدات والسادة يغدون ويروحون فى ضوء الشمس الساطعة ، وكل يحيى الآخر وينحنى له فى مزيج باهر ، والعربات تضج ، ومن كل برج دقت النواقيس داعية إلى القداس ؛ والنبرات والأنغام تتردد رائعة فى السماء الصافية أعلى بقية الضوضاء . فانتشيت سروراً ومن كل ضجة ، وفى انفعالى عدوت قدماً لا ألوى على شىء إلى أن أصبحت لا أدرى أين كنت . وبدا لى كل شىء عليه مسحة من السحر ، وكأن الميدان الهادىء ذا النافورة والحديقة والمنزل قد كان حُلماً سرعان ما اختفى فى أعماق الأرض بمجرد أن رف عليه ضوء النهار .

ولم يكن فى وسعى أن أسأل عن الطريق ، لأنى لم أكن أعرف اسم الميدان . ثم بدأ كل شىء يرهقنى ، فأشعة الشمس كانت تنطلق منقضة على الجص كأنها السهام الملتهبة ، والنـاس يعتصمون بمنازلهم ، والشّمْريات قد أغلقت من جديد فى كل نافذة ، وفجأة خيم على الطرقات صمت كصمت القبر . وأخيراً ألقيت بنفسى يائساً قانطاً أمام منزل كبير بديع فيه طُنُف على أعمدة تلقى ظلا كثيفاً ، ونظرت إلى المدينة الهادئة التى بدت مريعة فى قفر الظهر المفاجئ ، ثم إلى السماء الصافية القاتمة الزرقة ، حتى استولى على النعاس من شدة التعب . حينئذ حَلمتُ بأنى أرقد على مرج ساكن أخضر بالقرب من قريتى ، ومطر صيفى حار يسّاقط متألقاً فى أشعة الشمس التى أطفلت وراء التلال ، وكانت قطرات المطر حين تمس الأرض تستحيل إلى أزهار جميلة مختلفة الألوان ، غطت كل أعضائى .

ولـكن كم كانت دهشتى حين استيقظت فوجدت آلاف الأزهار الناضرة البديعة من فوقى ومن حولى ! فوثبت ، ولـكنى لم أر شيئاً يدعو إلى الدهشة ، وكل ما هنالك أن نافذة فى المنزل الذى فوقى بها أزهار عطرية كانت مفتوحة ، ومن ورائها ببغاء تثرثر وتصيح باستمرار . فالتقطت الأزهار المنتـثرة ، وحزمتها بعضها مع بعض ، ووضعت باقة فى عروتى ، ثم بدأت أتحدث إلى الببغاء قليلا ، إذ سرنى أن أنظر إليها صاعدة نازلة فى قفصها الذهبى ، هابطة دائمة بتبلد على ظفرها الأكبر وهى تقطب وجهها

على كل نحوٍ من الأنحاء . ولكنها بدأت تصيح فىّ فى الحال قائلة : « يا صعلوك » (بالإيطالية) . ومع أن الصوت قد صدر من حيوان غير عاقل ، فقد أثار حفيظتى . فلعنتها ، وغضب كلانا من الآخر ، وكلما صببت عليها الشتائم بالألمانية ، انهالت على بمثلها مجيبةً بالإيطالية .

وفجأة سمعت من ورائى شخصا يضحك . فالتفت بسرعة ؛ فكان رسامى الذى عرفته فى الصباح . وقال لى : « ما هذا العبث الذى تخوض فيه الآن ! لقد كنت انتظرك منذ نصف ساعة . وها هو الجوّ قد اعتل نسيمه من جديد ؛ وستذهب إلى بستان خارج المدينة تجد فيه الكثيرين من أهل بلدك ، ولعلك أن تسمع شيئا أوضح عن الكونتيسة الألمانية » .

فانشرح صدرى وابتهجت نفسى لهذا الاقتراح ؛ ومضينا فى الحال ، والببغاء تشيعنى بالشتائم زمانا طويلا .

فلما بلغنا خارج المدينة بدأنا نصعد طريقاً ضيقاً صخرياً بين المنازل الريفية وعرائش الكروم ؛ وبعد قليل بلغنا حديقة صغيرة عالية جدا ، فيها جلس نفر من الشبان والفتيات حول منضدة فى الهواء الطلق . فلما دخلنا الحديقة أشاروا علينا جميعاً بالتزام الصمت مشيرين إلى الطرف الآخر من الحديقة ؛ وهنا فى خميلة كبيرة رائعة الخضرة والنماء جلست سيدتان جميلتان إلى طرفى منضدة . وكانت إحداهما تغنى ، بينما الأخرى تسايرها على قيثارة . وبينهما خلف المنضدة وقف رجل طلق المحيا ، طيب النفس يُرَقّم لهما الميزان بعصا

صغيرة . وكانت شمس المساء تسطع خلال الأوراق فوق زجاجات الخمر والفاكهة الموضوعة على المائدة ، وفوق كتفي السيدة العازفة على القيثارة ، وهما كتفان ممتلئتان مستديرتان ناصعتا البياض إلى درجة تخطف الأبصار . أما الأخرى فبدت نشوى تغنى بالإيطالية بفن رائع مدهش ، حتى كانت أوتار حنجرتها منتفخة رابية .

وفى اللحظة التى كانت تعزف فيها مَتحطًا طويلا وعيناها مشرعتان إلى السماء ، والرجل واقف ينتظر بعصا مرفوعة حتى اللحظة التى تعود فيها إلى الدور ، وبينا لم يكن أحد فى الحديقة كلها يجرؤ على التنفس ، فتح باب الحديقة فجأة ، ودخلت منه فتاة فى حالة اهتياج شديد ، يتلوها شاب ذو وجه وسيم شاحب ، وهما فى حالة عراك كبير . فدهش مدير الموسيقى ووقف رافعاً عصاه كأنه ساحر انقلب حجراً ، على الرغم من أن المغنية قد قطعت أغنيتها الطويلة ووثبت مُغضبة . وصرخ الكل فى وجه القادمَين بعنف وشدة ؛ وصاح أحد الجالسين إلى المائدة المستديرة : « توحُّش ! لقد أتيتم مُقاطِعَين عند اللوحة المليئة بالمعانى التى رسمها همّل بناء على الوصف الذى عمله المرحوم هوفمن فى ص ٣٤٧ من مؤلَّفه « كتاب الجيب للمرأة لسنة ١٨١٦ » ، وهى اللوحة التى عرضت بمعرض برلين للفن فى خريف سنة ١٨١٤ » . ولكن هذا لم يُجدِ فتيلا ؛ إذ أجاب الشاب : « أوه ؟ اهتم أنت بلوحات لوحاتك هاتيك . إن الصورة التى اخترعها أنا أدعها للآخرين ،

أما فتاتى فلى وحدى ! هذا ما أصر عليه ! أوه ، أيها الخائن ، أيها المزيف ! » ثم بدأ من جديد صياحه فى وجه الفتاة المسكينة : « وأنت أيتها المخلوقة الولوع بالانتقاد ، يا من لا تبحثين فى الرسم إلا عن بريق الفضة ومائها ، وفى الشعر لا تنشدين إلا الخيط الذهبى ، يا من ليس لك محبون بل أخطاب وأصحاب مال . ولذا أتمنى لك منذ الآن ، بدلاً من رسام شريف ، رُوقاً مجللاً فوق أنفه بكنز من الماس ، وعلى صَلْعَته بريق من الفضة ، وخيط من الذهب فى شعره القليل الباقى ! أعطينى هذا الخطاب الملعون الذى أخفيته منذ قليل ! ثم ماذا دبرت أيضا من مؤامرات ؟ ممن جاءك هذا الخطاب ، وإلى من ؟ »

ولكن الفتاة قاومت بإلحاح وعناد ؛ وكلما بذل الآخرون جهدهم فى تهدئة خاطر الشاب ، وكلما حاولوا تسليته وتسكين ثائرته بأصوات عالية ، ازداد غضبه وجنونه من هذا الضجيج ، خصوصاً أن الفتاة لم تستطع أن تقفل فمها ، وأخيرا شقت طريقها وسط الضجيج قدما إلىّ ، وبدون أن أتوقع ، ألقت بنفسها باكية على صدرى وسألتنى حمايتها . فاتخذت فى الحال الموقف السليم ؛ ولما لم يكن أحد فى الجمع الحاشد منتبها إلينا ، رفعت رأسها فجأة إلىّ وهمست فى أذنى بوجه ساكن كل السكون : «يا محصل المكوس الفظيع ! لقد عانيت هذا كله من أجلك . خذ هذه القصاصة الملونة فسترى عنواننا عليها . تذكر ، فى الميعاد المحدد ، حينما تدخل الباب ، دائما على طول الشارع الخالى على اليمين » .

فلم أستطع الـكلام من فرط الدهشة ، لأنى حين حدقت فيها بعناية ، تعرفتها : إنها الوصيفة المـاكرة اللعوب فى القصر ، التى أحضرت لى زجاجة النبيذ فى أمسية الأحد الجميلة هاتيك . إنها لم تبدُ لى من قبل جميلة كما تبدت لى الآن وهى مستندة إلى ، وغدائرها السمراء معلقة فوق ذراعى . فقلت ، وأنا ملىء بالذهول : « أيتها الآنسة المبجّلة ، كيف أنت ؟ » — « أستحلفك بالله أن تسكت ؛ اسكت الآن ! » هكذا أجابت ووثبت من بين يدى وعَـدَت مسرعة إلى الجانب الآخر من الحديقة ، قبل أن نكون فى وسعى التروى فى الأمر كله بوضوح .

وفى تلك الأثناء كان الآخرون قد نسوا السبب الأول فى عراكهم ، وبدأوا يتناوشون فى حبور ، محاولين أن يبرهنوا للشاب أنه كان سكران ، وهو شىء لا يليق مطلقاً برسام محترم . أما الرجل الرَّبْـعة القصير الجالس فى الخميلة — وهو ، كما عرفت فيما بعد ، خبير بالفنون محب لها ، ومن شغفه بالعلوم كان يرغب فى المشاركة فى كل شىء — فقد ألقى عصاه وتجول بين الجمع بوجهه السمين المتألق بالود والصفاء ، محاولا فى معمعان الجلبة أن يوفّـق بين الجميع ويسكن ثائرتهم ، بينا كان فى أثناء هـذا كله يتأسف باستمرار على المحط الموسيقى الطويل وعلى اللوحة البديعة التى أجهد نفسه فى تنظيمها .

أما فى قلبى فقد صفا كل شىء وتألق كالنجم ، كما حدث لى فى ذلك السبت السـعيد ، يوم أن جلست أمام زجاجة الخمر عند

النافذة المفتوحة وعزفت على قيثارتى فى أعماق الليل . ولما رأيت أن الضجيج لا يريد الانتهاء ، أخذت كمانى ، وبدون تمهل وتفكير رُحت أعزف رقصة إيطالية ، تُبْرَقص فى الجبال ، عرفتها فى القصر القديم الموحش فى الغاب .

فتلفتت إلىّ كل الوجوه « مرحى ، مرحى ، فكرة بديعة ! » هكذا صاح الخبير الذوّاقة المرح ، ودار حول الجميع من أجل أن ينظم ما سماه باسم التسلية الريفية . وافتتح هو الرقص مقدماً يده إلى السيدة التى كانت تعزف فى الخميلة ؛ ورقص ببراعة فائقة مدهشة ورسم بأطراف قدمه كل أنواع الصور على العشب ، وأحدث هزة موسيقية (تِرِلّو) بوقع أقدامه ، ووثب وثبات بديعة بين الحين والحين . ولكنه سرعان ما اكتفى ، لأنه كان بديناً إلى حد كبير . فقام بوثبات أقل براعة وطولا إلى أن غادر الحلقة فى النهاية ، وسعل بشدة ومسح العرق من وجهه بمنديل أبيض بياض الثلج . وفى هذه الأثناء ذهب الشاب ، بعد أن استعاد حلمه من جديد ، لإحضار صنّاجات من النزل ، وقبل أن أتبين ما سيجرى ، كانوا جميعاً يتراقصون تحت الأشجار . وقد ألقت الشمس الغاربة بعضاً من الأشعة الوردية خلال الظلال المظلمة وفوق الجدران القديمة والأعمدة المغطاة بالجِلْبِلاب الغائصة إلى منتصفها فى الحديقة ، بينما كان يرى المرء فى الجانب الآخر ، تحت عرائش الكروم ، مدينة روما راقدة فى نور المساء . ورقص الكل برقة وفتنة على الخضرة فى الجو الصافى الساجى ، وضحك قلبى فى داخل جسمى

حين رأيت الفتيات النحيلات ، وفى وسطهن الوصيفة ، وهن يرقصن حول الحبائل ، مشرعات أذرعهن كحوريات الغاب الوثنيات ، ويقرعن صَنّاجاتهن . فلم أتمالك نفسى طويلا ، بل وثبت بينهن ورقصت مسروراً ، عازفاً على الكمان باستمرار .

ولعلى قد بقيت مدة طويلة أتواثب فى الحلقة دون أن أنتبه إلى أن الآخرين قد بدأوا يتعبون ويغادرون مكان الرقص . وإذا بشخص يشدنى بقوة من ذيل سترتى ؛ وكان هذا الشخص الوصيفة . فقالت لى بصوت رقيق : « لا تكن مجنوناً ، إنك تتواثب كالماعز ! إقرأ هذه الورقة بعناية ، وتعالَ حالا ، فإن الكونتيسة الفتية الجميلة تنتظر » . وما قالت هذا حتى هُرِعت تخرج من باب الحديقة فى الغسق ، وسرعان ما غابت بين عرائش الكروم .

كان قلبى يخفق خفقاناً سريعاً ؛ وكنت أود لو عدوت بسرعة خلفها فى الحال . ولحسن الحظ ، جاء أحد النُّدُل وأنار مصباحاً فوق باب البستان ، فاقتربت من المصباح وقرأت ما فى الورقة ، فرأيت مكتوباً عليها بخط غير مقروء تقريباً ، وصفاً للبوابة والشارع على النحو الذى وصفته الوصيفة ، وفى ذيلها كتب : « فى الساعة الحادية عشرة عند الباب الصغير » .

وهذا معناه أنى سأنتظر طويلا ! ولكنى على الرغم من هذا رغبت فى السير إليها الآن ، لأنى عدمت الراحة والسلام ؛ غير أن الرسام الذى أتى بى هنا أتانى وقال : « هل تكلمت مع الفتاة ؟

إننى لا أراها الآن فى أى مكان ؛ إنهـا وصيفة الـكونتيسة الألمانية » . فأجبت : « على رسلك ، إن الـكونتيسة لا تزال فى روما» . فقال الرسّام : « حسنا إذن ؟ تعال واشرب على صحتها ! » وعلى الرغم منى جذبنى إلى الحديقة .

وهنا عاد كل شىء خاويا ساكنا . فالضيوف المرحى كانوا عائدين إلى المدينة ، ومع كل حبيبته متأبطة ذراعه ؛ وفى الوسع سماعهم فى هدوء المساء وهم يتحادثون ويتضاحكون بين الـكروم ، مبتعدين شيئا فشيئاً ، إلى أن فقدت أصواتهم وسط حفيف الأشجار وخرير النهر فى الوادى السحيق . وبقيت أنا وحدى مع الرسام ، ومع اكـبرشـت — وهذا هو اسم الرسام الشاب الذى أحدث من قبل كل ذلك العراك والضجيج . وأضاء القمر رائعاً جميلاً بين الأشجار القائمة الباسقة فوق الحديقة ، وترنح المصباح فى الريح وهو موضوع أمامنا على المنضدة ، ورف على بُقَع الخمر المُهراقة عليها . فجلست وتحدث إلىّ رفيق الرسام عن مجيئى إلى روما ، ورحلتى ، وما انتويت فعله بعد ، أما اكبرشت فقد أخذ الفتاة الرشيقة الخادمة التى أحضرت لنا الخمر من النزل ، وأجلسها على ركبته ؛ ثم وضع فى يديها قيثارة وراح يعلمها كيف تضرب عليها نغمة . وسرعان ما جربت هى بنفسها بيديها الصغيرتين ، وغنيا معاً أغنية إيطالية ، هو يردد أولا بيتا ، وهى الآخر ؛ وكان جميلاً سماع هذا فى جو المساء الساجى . فلما نوديت الفتاة إلى النزل اتكأ اكبرشت بظهره على المقعد ومعه القيثارة ، ورفع قدميه على

كرسى أمامه ، وغنى وحده بعضاً من الأغانى الألمانية والإيطالية ، دون أن يلقى بالاً إلينا . وكانت النجوم تضىء رائعة فى السماء الصافية ، وتألقت المنطقة المجاورة كلها فى ضوء القمر الفضى ؛ ففكرت فى سيدتى الحسناء ووطنى البعيد ، ونسيت تماماً الرسام الجالس إلى جوارى . وبين الفينة والفينة كان إكبرشت يسوّى قيثارته ، مما جعله فى كل مرة مغضبا . فشد الآلة ولفها حتى قطع سلكاً فيها آخر الأمر . وحينئذ قذف بالقيثارة ووثب ؛ وهنا لاحظ للمرة الأولى أن رفيق الرسام قد وضع رأسه على ذراعيه فوق المنضدة ونام . فأسرع بوضع معطف أبيض على جسمه ، كان معلقاً على غصن إلى جواره ، وتوقف فجأة وكأنه يفكر ، وأحدّ النظر أولا إلى رسامى ثم إلىّ ، وجلس بسرعة إلى المنضدة فى مواجهتى ، وسلّك حلقه ، وشد رباط رقبته ، وفى الحال راح يمسك بى وقال : « عزيزى السامع المواطن ! لما كانت الزجاجة فارغة تقريبا ، وكانت الأخلاق أول صفة من صفات المواطن الحر ، فإننى أشعر ، حين أرى الفضائل تنحلّ ، بنفسى مدفوعاً بعاطفة أبناء الوطن الواحد أن أذكرك بأخلاقك » . وواصل حديثه قائلا : « قد يظن المرء أنك شاب ، ولو أن سترتك قد عاشت خير أيامها ؛ وقد يعترف بأنك قد قمت بوثبات بديعة مثل السّاتير[1] ؛ نعم ، بل قد يؤكد البعض أنك لست إلا متشرداً ،

---

(١) السّاتير : انصاف آلهة الريف ، مجهولو الأصل . ويصورون على هيئة بنى الإنسان ، ولكن بأقدام الماعز وسيقانها ، وقرون صغيرة =

لأنك هنا فى الريف تعزف بالـكمان ؛ ولـكنى أنا لا أحفل بأمثال هذه الأحكام السطحية ، بل أحكم عليك بأنفك الجميلة الأحديداب ، وأظن أنك عبقرى فى رحلة » . فضايقتنى هـذه الأقوال المغالطية ورغبت فى الإجابة ، ولـكنه لم يدع لى الفرصة ، بل قال : « انظر كيف انتفخت أوداجك فى الحال لدى سماعك هذه الـكلمات القليلة ثناء عليك . عُد إلى داخل نفسك وفكر طويلاً فى هذه المهنة الخطرة ! إنا معشر العباقرة — لأنى أنا أيضا منهم — لا نحفل بالعالم المحيط بنا إلا قليلا ؛ ونفضل أن نختال بلا مراسم ولا تكليف فى أحذيتنا ذات الأقدام السبع ، التى نأتى إلى العالم بها ، سائرين قدماً إلى الأبدية . أواه ، ياله من وضع محزن قلق منفرج القدمين ، فواحدة فى مستقبل ليس فيه غير الفجر ووجوه الأجيال المقبلة ، والأخرى لا تزال فى وسط روما فى ميدان الشعب (پيتسادل پوپولو) ، حيث يظن الجيل الحاضر بأسره أنها فرصة سعيدة أن يأتى ويتعلق بحذاء الواحد منا ، وكأنه يريد أن يقتلع أرجلنا ؛ وكل هذا الحراك والسكر والعربدة والجوع من أجل شىء واحد ، هو الخلود الدائم . انظر إلى زميلى الراقد هناك على المقعد ؛ إن الزمان طويل جدا بالنسبة إليه ، فماذا سيعمل إذن بالخلود والأبدية ؟ نعم ، أيها الزميل العزيز ، أنت وأنا والشمس قد استيقظنا جميعاً فى البكور هـذا الصباح ، وأنا قد فكرت وتأملت ورسمت

= فى الرأس ، وجسمهم مغطى كله بالشعر . ووظيفتهم الرئيسية الخدمة على باخوس ؛ ويعرفون فى المحافل الباخوسية بما لهم من عربدة صاخبة وفجور .

طوال النهار ، وكل شيء كان بديعا — ولـكن ها هو ذا الليل الناعس يجثم على العالم مزيلاً كل الألوان » . واستمر يتابع حديثه ، وكان شعره مهتاجاً من كثرة هذا الرقص والشراب ، ووجهه شاحباً شحوب الموتى فى ضوء القمر .

غير أنى ارتعت منه ومن حديثه الوحشى إلى درجة أنى انتهزت فرصة التفاته إلى الرسـام النائم ودرت حول المنضدة وخرجت من الحديقة دون أن يشعر بى . ومضيت وحيـداً ، دون أن يشعر بى ، أهبط السلالم القريبـة إلى الوادى الفسيح الرفاف فى نور القمر .

دقت أجراس المدينة العاشرةَ . ومن ورائى فى الليل الساجى كنت أسمع نغمة عابرة من قيثارة ، وأحياناً أصوات الرسامين ، اللذين كانا هما أيضا فى الطريق إلى النزل . لذا عدت بسرعة قدر المستطاع ، كى لا يسألانى بعد شيئا .

وعند البوابة أدرت وجهى إلى الشارع الأيمن ، ومضيت فى طريقى مهرولاً بين البيوت والحدائق الهادئة ، وقلبى القلق فى الخفقان . ولـكن كم كانت دهشتى حين وجدت نفسى فجأة فى الميدان ذى النافورة ، الذى لم أستطع العثور عليه فى النهـار ؛ هنا كانت حديقة النزل المتوحدة ، وهى تستحم فى ضوء القمر البديع ، وكانت السيدة الحسناء تغنى من جديد نفس الأغنية الإيطالية التى كانت تغنيها عشية الأمس . فهرعت ، وملئى السرور ، إلى الباب الصغير ، ثم إلى باب النزل ، ثم اندفعت بكل

قوتى إلى باب الحديقة الكبير ؛ ولكنها كانت محكمة الإغلاق . فتذكرت فجأة أن الساعة الحادية عشرة لم تدق بعد . لذا كنت محنقاً مغيظاً من الزمان لأنه يمضى بهذا البطء ؛ ومنعنى الأدب من التسلق فوق باب الحديقة كما فعلت مساء الأمس . ومن أجل هذا تمشيت ذاهبا آيباً فى الميدان الخاوى لمدة من الزمن ؛ ثم جلسنا مرة أخرى على صخور النافورة ، وأنا مفعم بالأفكار ، تشيع فى نفسى ألوان من اللهفة والحنين .

النجوم تتألق فى السماء ، والميدان تعلوه الوحشة والسكون ؛ فأرعيت سمعى إلى أغنية سيدتى الحسناء التى كانت تهفو إلىّ خلال خرير النافورة . وفجأة رأيت شبحاً أبيض قادماً من الجانب الآخر للميدان ، ومتجهاً مباشرة ناحية باب الحديقة الصغير . فحدقت فيه ، ووجدته الرسام المتوحش مرتدياً معطفه الأبيض ، ورأيته يأخذ مفتاحاً بسرعة ويفتح البوابة ، وقبل أن أتبين ما كان يجرى ، كان هو بالفعل فى داخل الحديقة .

وأنا منذ البدء لم أستسغ هذا الرسام نظراً إلى خُطبه غير المعقولة . ولكنى الآن فقدت كل سيطرة على مزاجى . فهذ الرسام العربيد لا بد وأن يكون سكران مرة أخرى ، هكذا ظننت ، ولا بد أن يكون قد أخذ المفتاح من الوصيفة ، وهو الآن بسبيل مفاجأة السيدة الجميلة ومهاجمتها وخداعها . لذا انزلقت من خلال الباب الصغير الذى تركه من ورائه مفتوحا .

فلما دخلت الحديقة وجدت كل شىء ساكنا موحشا .

وشعريات نوافذ منزل الحديقة كانت مفتوحة ؛ ونور أبيض كاللبن يضيء متساقطاً على الأعشاب والأزهار أمام النزل . فنظرت فى داخله من بعيد . فرأيت سيدتى الجميلة راقدة على وسادة حريرية فى غرفة خضراء بديعة ، غير مضاءة إلا قليلا بواسطة مصباح أبيض واحد ، وفى يديها قيثارتها ، دون أن تلقى بالاً فى براءتها الطاهرة إلى الخطر الذى كان يتهددها من الخارج .

لم يكن لدى وقت للوقوف والتأمل ، لأنى لاحظت فى الحال أن الشبح الأبيض يتقدم بحذر جدا من المنزل خلال الخمائل فى الجانب الاخر ، وكانت السيدة تغنى من المنزل غناء حزيناً مزق نياط قلبى . ودون تمهل للتفكير اقتلعت غصنا صلباً من شجرة وعدوت مسرعاً فى اتجاه صاحب المعطف الأبيض ، وصرخت بأعلى صوتى : « إلى اللص السفاك » ! حتى ارتعدت الحديقة كلها .

وما رآنى الرسام قادماً على هذا النحو غير المتوقع ، حتى ولى هارباً ، وهو يصيح مذعورا . وأمعنت أنا فى الصراخ والصياح ، هذا نحو المنزل ، وأنا من ورائه — وكدت أن أمسك به لولا أن اشتبكت أقدامى فى بعض جذوع أشجار أزهار ، وسقط مكبوباً على وجهى أمام باب المنزل .

« أهو أنت أيها المجنون ! » هكذا سمعت أحداً أعلاى ينادى : «لقد أزعجتنى وأشمت فى أفظع الخوف » . فنهضت مسرعاً ، ولما رحضت الرمل والتراب عن عيونى ، رأيت الوصيفة واقفة أمامى ؛ وقد انزلق المعطف الأبيض من فوق كتفيها . فقلت وقد علانى

الذهول : « ولكن ، ألم يكن الرسام هنا ؟ » فأجابت بخبث : «بلى ، بكل تأكيد ، وعلى الأقل معطفه الذى أعاربيه عند البوابة ، لأنى أحسست بالبرد » . وبينا كنا فى هذا الحديث ، وثبت السيدة الحسناء من وسادتها وأقبلت نحوى . نخفق قلبى حتى كاد أن يتمزق . ولكن كم كانت دهشتى ، حين تأملت بعناية ، أن أرى شخصاً غريباً تماماً ، بدلاً من سيدتى الحسناء !

كانت امرأة فارعة بدينة شديدة الأسْر ، ذا أنف شامخة كأنف النسر ، وحواجب سوداء عالية الانحناء ، ذات جمال رائع مريع معاً . فنظرت إلىّ بجلال وروعة بعينيها النجلاوين البراقتين حتى لم أملك نفسى لشدة الهيبة . فاضطربت أشد الاضطراب ، وبقيت أنحنى إليها ، وحاولت آخر الأمر أن أقبل يدها ؛ ولكنها جذبتها بسرعة إليها وبدأت تتحدث بالإيطالية ، وهى لغة لم أفهم منها فتيلا .

وفى تلك الأثناء كان الجيران جميعاً قد استيقظوا على صراخى ، ونبحت الكلاب ، وصرخت الأطفال ، وكانت أصوات الرجال تُسمع قادمة تقترب شيئاً فشيئاً . فنظرت السيدة إلىّ مرة أخرى ، وعيناها تنفذ إلى كأنها تريد أن تقذفنى بكرات نارية ، ثم عادت إلى غرفتها بسرعة ، وبضحكة متشامخة غير طبيعية أغلقت الباب فى وجهى بشدة . أما الوصيفة فقد أمسكت بسترتى ودفعت بى نحو باب الحديقة .

« ها أنت ذا تأتى بفعل أهوج طائش مرة أخرى » ، هكذا

قالت مغضبة . وأنا أيضاً كنت مغضباً ، فقلت : « إذهبي إلى الشيطان ! ألم تقولي أنت نفسك أن آتي هنا ؟ » فصاحت الوصيفة : « هو ذا بعينه ؛ فسيدتي تقصد حسناً من ناحيتك ؛ وترمى إليك بالأزهار من النافذة ، وتغنى أغانى — وهذا هو جزاؤها ! ولكن لا شيء ينفع معك ؛ إنك تطأ سعادتك بقدمك » . فأجبت : « أنا أقصد السيدة الألمانية الحسناء » . فقاطعتنى : « آه ؛ إنها ارتحلت إلى ألمانيا من زمان طويل ، هي وكل غرامك الجنونى . فعد أنت إلى هناك ! وأقول لك أيضاً إنها مشتاقة إليك ، وستكونان قادرين على العزف بالكمان سويا وتأمل القمر ، ولكن لا تدعنى أراك مرة أخرى ! » .

وفى ذلك الحين كان ثمة ضوضاء مريعة من ورائى . فقد كان الناس من الحديقة المجاورة يتسلقون بسرعة ، ومعهم عصيهم ، فوق السياج ، ومنهم من كانوا يسبون ويلعنون بصوت عال ؛ وبدأوا يبحثون فى الطرقات ، وتبدت وجوه قانطة من تحت قبعات ليلية فى ضوء القمر وهى تطل من فوق السوج ؛ وبدا كأن الشيطان قد أطلق الغوغاء من كل سياج وخميلة . ولم تتردد الوصيفة ، بل قالت للشعب مشيرة إلى الناحية الأخرى من الحديقة : « هناك يجرى اللص ! » . ثم دفعت بى خارج الحديقة بسرعة ، وأغلقت الباب بشدة من ورائى .

وهأنذا من جديد تحت سماء الله الصافية واقف فى الميدان المادى وحدى ، كما كنت فى مساء اليوم السابق . وكانت النافورة

لا تزال تقذف بالماء ؛ وهى تتألق مرحة فى ضوء القمر ، كأن الملائكة فيها يصعدون وينزلون . ولكن كل سرورى قد سقط الآن حتى الحضيض . فقر عزمى نهائياً على هجرة إيطاليا إلى الأبد ، إيطاليا الزائفة ، بكل ما فيها من رسامين مجانين ، وبرتقال ، ووصيفات . واتخذت سبيلى قدُماً إلى خارج المدينة من خلال البوابة .

الفصل التاسع

وَقَفَتْ ترعى الجبالُ الأمناء :
« من يمرّ الآن فى صمت البكورْ ،
فوق مرجى من بلاد الغرباء » ؟
وأنا أرنو إليها فى سرور ،
ضاحكاً أهتف من عمق الفؤادِ ،
صيحة الجندى : فلتحيَ بلادى

وهنا تعرفنى كل الجهات ،
فتحيّي الغابُ والأطيار صفّا
بلسان ضم كل اللهجات ،
وأرى الدانوب فى الأعماق رفا
ببيعة استيفانَ تدعو فى البعاد ،
فألبى ، قائلا : تحيا بلادى ![1]

(١) يبدأ هذا الفصل بهذه الأغنية البديعة التى تتجاوب فيها عواطف =

وقفت على جبل عالٍ استطعت منه لأول مرة أن أرى النمسا في عودى إليها ، وحركت قبعتي وأنا مفعم بالسرور . وكنت أغنى المقطوعة الأخيرة حين سمعت خلفي فجأة في الغاب موسيقى آلات نفخ تشاركني . فالتفت بسرعة حولي ورأيت ثلاثة فتيان في معاطف زرقاء طويلة ، أحدهما ينفخ في مزمار ؛ والثاني في يراعة ، والثالث ، وكان يلبس قبعة قديمة مثلثة القرون فوق رأسه ، كان ينفخ في بوق الغاب — وسايروني في العزف إلى أن تجاوبت كل الغابة بالأصداء . فأثار هذا حميتي ، فأخذت كماني وعزفت وغنيت بسرور معهم . فلما رأوا هذا مني تأمل كل منهم الآخر مُفْكِراً ؛ وكان النافخ في البوق أول من أسقط انتفاخ صُدْغيه ، ووضع بوقه جانباً ؛ وصاروا من بعد صامتين وإليّ ينظرون . فتوقفت أنا الآخر مدهوشاً وبادلتهم نظرات بنظرات . وأخيراً قال النافخ في البوق : « لقد ظننا حين رأينا السيد لابساً هذه السترة المذيّلة الطويلة أنه لا بد أن يكون سائحاً إنجليزيا ، يتمشى هنا كي ينعم بجمال الطبيعة ؛ وحسبنا أن في وسعنا أن نظفر منه بمساعدة . ولكن يبدو أن السيد نفسه موسيقار » . فأجبت : «أنا في الواقع مُحصّل مكوس ؛ وأنا قادم من روما مباشرة ، ولكن لما كنت لم أحصّل شيئاً منذ زمان طويل ، فإنني قد كافحت في سبيل العيش

= الحنين الحار إلى وطنه على الرغم من شدة شغفه بالتجوال في كل الأصقاع ؛ وهذا مصدر آخر من مصادر شقاء الضمير الرومنتيكي ، إذ هو معذب بحنينين متقابلين : حنين الاغتراب ، وحنين الوطن .

بواسطة العزف على الكمان ، « ولكنها لا تُربح كثيراً فى هذه الأيام ! » ، هكذا قال النافخ فى البوق ، الذى كان قد عاد فى تلك الأثناء إلى الغاب كيما يحضأ النار التى أوقدوها هناك ، بأن يروّح عليها بقبعته المثلثة القرون . وأضاف قائلاً : « إن آلات النفخ خير منها ؛ فحين يكون الناس جالسين يتناولون الغذاء ظهراً ، وندخل الفِناء دون أن يلتبه إلينا أحد ، ونبدأ نحن الثلاثة ننفخ بكل قوتنا ، فإن الخادم يأتى مندفعاً فى الحال ومعه النقد أو الطعام ، كيما يتخلصوا من الضوضاء . ولكن هَلاَّ يريد السيد أن يأكل معنا شيئاً ؟ » .

كانت النار حينئذ تتقد فى حبور فى الغاب ؛ وكان الصباح منعشاً ؛ فجلسنا جميعاً على شكل دائرة فوق العشب ، وأنشأ اثنان منهم يأخذان من النار إبريقاً صغيراً يحتوى قهوة ، بل ولبناً أيضاً ؛ وأخرجا شيئاً من الخبز من جيوبهما وصبا وشربا على التبادل ، وكان المذاق عذباً لهما ، حتى كان من السار أن يلاحظهما المرء فى هذه الحال . غير أن النافخ فى البوق قال : « إنى لا أستطيع أن أشرب هذا المشروب الأسود » ، ثم أعطانى نصف شطيرة بعدها أحضر زجاجة من الخمر ، وقال : « هل يريد السيد أن يشرب أيضاً ؟ » فشربت جرعة كبيرة ، ولكننى اضطررت إلى وضع الزجاجة ، وقطبت حاجبى ، لأن مذاقها كالخل . فقال نافخ البوق : « إنها خمرة محلية ؛ ولكن السيد قد أفسد ذوقه الألمانى فى إيطاليا » .

وحينئذ فتش وخشخش فى حقيبته ؛ ومن وسط ما بها من سَقَطٍ كثير أخرج مصوراً جغرافيا كان لا يزال عليه صورة الامبراطور فى أفخر ثيابه الرسمية ، والصولجان فى يده اليمنى ، والكرة الامبراطورية فى اليسرى . وبسط المصور بعناية على الأرض ، واقترب الآخران ، وبدأوا يتفاهمون ويتشاورون على الطريق الذى يجب عليهم أن يسلكوه .

فقال أحدهم : « إن الإجازة أوشكت على الانتهاء ، فيجب أن نتجه شمالا من لِنْتس ، كيما نصل براغ فى الوقت المناسب » . فصاح نافخ البوق : « إلى أين تريدون الذهاب بنا حقاً ؟ لا شىء غير الغابات وعمال المناجم الفلاحين ، ولا ذوق فنياً مرهف ، لا نُزُل خالياً من الدفع معقول ! » فأجاب الآخر : « أوه ! هذا عبث ! إننى أفضل الفلاحين ، لأنهم يعرفون جيداً أين المأزق ، ولا يحاسبونك بدقة حين تعزف أحياناً نغمة باطلة » . فأجاب نافخ البوق : « ومعنى هذا أنك لا تحفل بمسائل الشرف ؛ إن الشاعر(١) اللاتينى يقول : أبغض الشعب الوضيع وأنبذه » . فقال ثالثهم : « لا بد أن تكون فى الطريق كنائس ؛ وهكذا نستطيع أن نعيش مع القسيس » . فأجاب نافخ البوق : « إن القسس أيها السيد لا يعطون إلا نقوداً ضئيلة ومواعظ طويلة لكى يحملونا على عدم التجوال هكذا فى العالم دون غاية ، وعلى

(١) هو هوراس (الأغانى ق ٣ : ١ : ١) الذى يفخر هنا بأنه يزدرى تصفيق الشعب ، ولا يسعى إلا إلى كسب الخبراء الذواقين .

عدم العناية بالدراسة ، خصوصاً حين يشتمّون فينا زملاء لهم فى المستقبل . كلا ، كلا ، إن القسيس لا يُصلح القسيس . ولكن لم كل هذه العجلة ؟ إن الأساتذة لا يزالون فى كرلزباد ، ولا يحافظون على موعد الدراسة بكل تدقيق » . فأجاب الآخر : « نعم ؛ ولكن يجب أن نميز بين الناس والناس ، فما يسمح به للإله چوبيتر ، لا يسمح به للثيران » .

فتحققتُ الآن أنهم طلبة من پراغ ، وشعرت نحوهم باحترام وتبجيل ، خصوصاً وأنا أراهم يتدفقون باللاتينية . فسألنى النافخ فى البوق : « وهل السيد طالب أيضاً ؟ » . فأجبت بخشوع أننى ذو رغبة شديدة فى الدراسة ، ولكن ليس معى مال . فصاح نافخ البوق : « هذا ليس بمهم . فإنا نحن أيضاً ليس لدينا ذهب ولا لنا أصدقاء أثرياء . ولكن الرجل الماهر يجب أن يعرف كيف يشق طريقه بنفسه . الفجر صديق آلهة الفن : هذا معناه : لا تضيع وقتاً كثيراً فى الإفطار . ولكن حينما يدق جرس منتصف النهار ويتردد رنينه من الأبراج عبر المدينة حتى الجبال ، وينطلق تلاميذ المدارس فجأة من المدارس المظلمة صائحين منصبين فى الطرقات فى ضوء الشمس الساطع ، حينئذ نذهب إلى دير الكبوشيين عند الأب المشرف ، فنجد مائدة قد صفت لنا ، وحتى إذا لم تكن قد صُفّت ، فإننا نجد طبقاً كافياً لكل منا موضوعاً عليها ، ولا نلقى بسؤال ، بل نأكل ، ونصلح لغتنا اللاتينية فى نفس الآن . أفاهم أيها السيد ؟ على هذا النحو ندرس يوماً بعد يوم . وحينما

تبدأ العطلة ويذهب الآخرون إلى أهلهم وذويهم نجوب نحن ، ومعنا آلاتنا تحت معاطفنا ، خلال المخارف وخارج البوابة ، فيفتح أمامنا العالم كله » .

ليت شعرى لماذا أحسست فى أعماق قلبى — أثناء كلامه — بأن أمثال هؤلاء المثقفين لا بد أن يكونوا فى العالم أشقياء لا يحفل بهم إنسان . وقدرت فى نفسى أن الأمر عندى هو بعينه على هذا النحو ، فاغرورقت عيناى بالدموع . فحملق نافخ البوق فى وجهى وقال : « ولا يهمنى أن أرحل ممتطياً صهوة جواد ومعى مقدماً قهوة وفراش نظيف وقبعات ليلية وآلة خلع الحذاء . وهذا بعينه خير ما فى الأمر ، ألا وهو أننا حين نبدأ فى الصباح الباكر والطيور العابرة تطير أعلانا ، لا نعلم أى مدخنة تدخن لنا فى ذلك اليوم ، ولا ندرى أى حظ نلاقى قبل انتهاء النهار » . فقال الآخر : « نعم ! وحينما تلفتنا وأخذنا آلاتنا ، نكون فى سعادة وهناء ؛ وحين نبلغ فى الظهيرة صُفّة ونبدأ نغنى فى الفِناء ، يرقص الخدم سوياً وعند الباب الأمامى ويدع السادة أبواب قاعة الطعام مفتوحة كى يسمعوا جيداً ، وعبر الباب تصلنا أصوات الأطباق ورائحة الشواء ، وتدير الخادمات عند المائدة رؤوسهن محاولات رؤية الموسيقيين » . فصاح نافخ البوق : « أجل ، دع الآخرين يكرزون ملخصاتهم ؛ أما نحن فإننا ندرس فى تلك الأثناء فى كتاب الصور العظيم الذى فتحه العلىّ القدير أمامنا فى الدنيا الفسيحة . نعم صدقنى يا سيدى ، أننا سنكون جنسا صالحاً من

القسس ، وستكون لنا رسالة إلى الفلاحين ، وسنطرق الدرج أمامنا بقبضة أيدينا ، حتى تكاد قلوب الجمع الماثل أمامنا فى أسفل أن تتمزق عظة وتقوى » .

فأثار سماعى هذا الحديث منهم شعورا بالسرور العميق إلى درجة إننى رغبت فى المضى معهم للدراسة . إننى نهم إلى السماع ، لأننى أريد أن أكون دائماً مع الناس المثقفين الذين يستطيع المرء أن يستفيد من أحاديثهم . غير أن حديثهم لم يبلغ مرتبة عالية ، لأن أحد هؤلاء الطلاب قد ارتاع من أن تكون العطلة على وشك الانتهاء ، ووضع يراعته فى فمه ، وأسند ورقة ، كتب عليها النغمات ، إلى ركبتيه . وبدأ يتمرن على قطعة صعبة من قُدّاس كان عليه أن يشارك فى العزف به حين يعودون إلى براغ . وها هو ذا يجلس هناك ، لاعبا بأنامله ونافخا بفمه نغمات كان بعضها ناشزاً نشوزاً أزعجنى ، حتى لم يكن يفهم المرء كلمات نفسه .

وفجأة صاح نافخ البوق بصوت جهير : « مرحى ، مرحى ، لقد وجدته ! » وفرقع على المصوّر الجغرافى إلى جواره . فأوقف الآخر نفخه الشديد لحظة ، ونظر إليه مدهوشا . وحينئذ قال نافخ البوق : « اسمع ! غير بعيد من فينا ، يوجد قصر ، وفى القصر حاجب ، وهذا الحاجب ابن عمى ! فيا أخوانى الطلبة الأعزاء ، يجب أن نغدو إلى هناك ونقدم له تحياتنا ، وفى وسعنا الاعتماد عليه فى تدبير أمر سيدنا بعد ! » وما قال هذه الكلمات حتى عرانى الذهول ، وسألته : « أو ليس هو عازفاً على الزَّمْخر ؟ أو ليس شيخاً فارع

القامة مستقيمها ، ذا أنف كبيرة أرستقراطية ؟» . فهز نافخ البوق رأسه إيجابا . وهنا عانقته بحرارة وسرور إلى درجة أن قبعته المثلثة القرون قد سقطت من فوق رأسه ، واتفقنا جميعاً فى الحال على الإبحار فى السفن الخاصة بالركّاب فى الدانوب حتى نبلغ قصر كونتيستى الحسناء .

وبلغنا شاطئ النهر فى نفس اللحظة التى كان فيها الزورق على وشك القيام . وكان صاحب النزل الذى رسا أمامه الزورق طوال الليل واقفاً رخىّ البال أمام الباب الذى ملأه بجسمه البدين ، وودعنا بكثير من المُلَح والنوادر ، بينا أطلت الفتيات من النوافذ باسمات فى ودّ إلى البحارة الذين يحملون فى تلك اللحظة آخر الطرود فوق ظهر المركب . وكان ثمة سيد عالى السّن يلبس معطفاً رمادياً ورباط رقبة أسود ، وممن كانوا مسافرين معنا ، واقفا على شاطئ النهر يتكلم بحرارة شديدة مع شاب نحيل يرتدى سروالاً من الجلد ، وسترة قرمزية ضيقة ، وكان راكبا جواداً فاخرا . ولشدة دهشتى خُيّل إلىّ أنهما كانا دائبين على النظر إلىّ والتحدث عنى . وأخيراً ضحك الرجل العالى السن ، وفرقع الشاب سوطه ، وعدا مسرعاً تحت وَضَح الشمس الساطعة فى الصباح خلال الريف المتألق ، بينا كانت القُبّر تحوم حواليه .

وفى تلك الأثناء كان الطلاب وأنا قد وضعنا معاً جميع نقودنا . فضحك الربان وأنغض رأسه حين دفع له نافخ البوق أجرتنا بعملة نحاسية صغيرة استطعنا جمعها من جيوبنا بكل مشقة وعناء . ولم

أكد أرى الدانوب أمامى من جديد حتى هتفت مسروراً ؛ وهُرِعنا إلى ظهر المركب ، وأعطى الربان الإشارة ، وأبحرنا بسرعة على طول النهر تحف بنا الجبال والمروج فى جو الصباح الفتّان .

كانت الطيور تغنى فى الغابات ، ومن كلتا الضفّتين تناهت إلينا أصوات نواقيس القرى ، ومن أعلى السماء هبطت علينا أناشيد القُبّر ، وفوق المركب شدا كنارى بسرور ، فبثّ سماعه فى النفس الحبور .

وهذا الكنارىّ كان لفتاة بديعة كانت معنا على ظهر المركب ؛ وكان قفصه على أحد جانبيها ، وعلى الجانب الآخر حزمة من الملابس الرفيعة وضعتها تحت ذراعها ؛ وقد جلست هناك وحدها ساكنة تنظر راضية إلى حذائها الجديد وهو يطل من تحت ذيلها ، ثم إلى الماء ؛ وسطعت على جبينها الناصع شمس الصباح ، ومن فوقه صُفّ شعرها بعناية . ولاحظتُ أن الطلاب كانوا يودون أن يفتحوا معها حديثا وديا ، لأنهم كانوا يمرون من خلفها وأمامها ، وكان نافخ البوق يسلّك حلقه باستمرار ، ويشد رباط رقبته أو قبعته . لكن لم يكن لدى أحد منهم الشجاعة الكافية ، وكانت الفتاة تغض طرفها فى كل مرة يقتربون منها .

لقد تضايقوا خصوصاً من السيد العالى السن ذي المعطف الرمادى الجالس على الجانب المقابل من الزورق والذى ظننّوه فى الحال قسيسا . لقد كان هذا الرجل يتلو أوراده الدينية ، ولكنه

كان كثيراً ما يرفع عينه عن الكتاب ، الذى كانت حروفه المذهبة وصوره المقدسة الزاهية تتألق فى ضوء الشمس ، من أجل أن يتأمل جمال الطبيعة من حوله . ولاحظ فى الآن نفسه ما كان يجرى بالدقة حوله ، ولا بد أن يكون قد تعرّف الطيور من ريشها (أى الطلاب) ، لأنه سرعان ما خاطب أحد الطلاب باللاتينية ، مما جعلهم يذهبون جميعا إليه ، ويرفعون إليه قبعاتهم ، ويجيبون عليه باللاتينية كذلك .

وكنت فى ذلك الحين قد أجلست نفسى عند جؤجؤ المركب ، وأنا أحرك أرجلى فى الماء مسرورا . وبينا كان الزورق يغدو والأمواج تتدافع وتزيد من تحتى ، رنوت إلى الأفق البعيد ، ولاحظت الأبراج والقصور القائمة على الضفاف الخضراء وهى تبدو وتتضح شيئاً فشيئاً حتى تختفى من جديد فى النهاية وراءنا . آه ! ليت لى اليوم أجنحة ! هكذا قلت لنفسى ؛ وأخيراً ، وبعد أن استولى على الضجر والقلق ، أخذت كمانى العزيزة وعزفت كل مقطوعاتى القديمة كل القدم ، أعنى تلك التى تعلمتها بين أهلى ، أو فى قصر حسنائى .

وعلى غرة ربّت أحدهم على كتفى من الخلف . لقد كان القسيس ، الذى وضع كتابه جانبا وأرعى إلىّ سمعه قليلا . ثم قال لى ضاحكا : « ها ! ها ! أيها المُـعَـلّم ، لقد نسيت الطعام والشراب » . فسألنى أن أضع كمانى جانباً ودعانى إلى مشاركته فى الطعام ، مقتادا إياى إلى خميلة لطيفة بناها البحارة وسط المركب

بأغصان الصنوبر والسندر . وفيهـا وضعت منضدة ، وكان علىّ وعلى الطلاب ، بل والفتاة ، أن نجلس على الصناديق والبراميل من حولها .

وأخرج القسيس شريحة ضخمة من الشواء البارد وقطعاً من الزبد والخبز ملفوفة فى ورق بعناية ، وأخذ من صندوق كثيراً من زجاجات الخمر ، وكأساً فضية مذهبة من الداخل وصب فيها وتذوق وشم ، وتذوق من جديد ، ثم قدم لـكل منا . أما الطلاب فقد جلسوا على البراميل كالواقفين ؛ وشربوا وأكلوا قليلا وعلى سبيل المجاملة فحسب . وحتى الفتاة نفسها مَزّت من الـكأس فحسب . ونظرت إلىّ فى خجل أولا ، ثم من بعد إلى الطلاب ؛ ولـكنها كلمـا نظرت إلينا ، ازدادت شجاعتها .

وأخيراً راحت تقص على القسيس أنها ذاهبة للخدمة للمرة الأولى ، وهى الآن فى طريقها إلى قصر مخدوميها . فتولانى أحر الخجل وتورد خدى حياء ، لأنها ذكرت قصر سيدتى الحسناء . فهى إذن وصيفتى المقبلة ؛ هكذا قلت لنفسى ؛ ونظرت إليها محدقاً فيها ، شـاعراً بشىء من الدوار . فقال القسيس : « عما قليل سيحتفل فى هذا القصر بزفاف » . فأجابت الفتاة ، وهى تود أن تسمع عن هـذا الأمر تفصيلا أكثر ، : « نعم ؛ إن الناس يقولون إنهما كانا عاشـقين خفيةً منذ زمان طويل ، ولـكن الـكونتيسة لم تعترف بهذا » . فلم يجب القسيس إلا بقوله : « هِم ! هِم ! » بينما ملأ كأسه ومَزّ فيه وعلى وجهه سيما التفـكير .

وكنتُ قد وضعت مرفقى على المنضدة ، وانحنيت إلى الأمام كيلا تفوتنى كلمة واحدة من هذا الحديث . فلاحظنى القسيس ، وقال : « وفى وسعى أن أقول لك إن الكونتيسة قد أرسلتنى من أجل أن أتفقد عِرْسها فى هذه المِنْطقة . وقد كتبت سيدة من روما تقول إنه غادر روما من زمن » . فلما بدأ يتحدث عن السيدة من روما ، احمر وجهى خجلاً من جديد ، وسألته وقد استولى على الاضطراب : « أوَ تعرف فضيلتك هذا العِرْس ؟ » فأجاب السيد المُسِنّ : « كلا ؛ ولكن يقال إنه فتى مَرِح » . فقلت بسرعة : « أجل ، أجل ، إنه طائر يفرّ من كل قفص بأسرع ما فى وسعه ، ويغنى طروباً حين يسترد حريته من جديد » . ثم أضاف القسيس بكل هدوء : « ويتجول فى البلاد الأجنبية ، ويذرع الطرقات فى الليل ، وينام على مدارج الأبواب فى النهار » . فضايقنى هذا القول كثيراً ، فصحْت : « إن المعلومات التى تلقيتَها عنه ليست صحيحة ، فإن العِرْس شاب ذو خلق ومستقبل ، شاب ضاوى القوام عاش عيشة ناعمة راضية فى قصر عتيق بإيطاليا ، غير مختلط إلا بالكونتيسات والفنانين المشهورين والوصيفات ؛ ويعرف جيداً كيف يدبر ماله ، لو أن لديه من المال شيئاً ؛ وهو . . . » فقال القسيس مقاطعاً : « والآن ، والآن ، لم أكن أعلم أنك تعرفه كل هذه المعرفة » ، ثم ضحك بملء فيه ، حتى علت وجهه زرقة ، وانهمرت الدموع فوق خديه . ثم قالت الفتاة : « ولكنى عرفت أن العِرْس رجل ثرى عظيم » . « آه ، نعم ، أوه ، نعم ،

نعم ، هذا خَلْط ، ولا شيء غير الخلط ! » ، هكذا صاح القسيس ولم يقو على وقف الضحك حتى جمله ذلك يسعل . ولما استعاد نفسه قليلا ، رفع قبعته عالياً وصاح : « يحيا العِرْسان ! » ولم أعرف ماذا أصنع بالقسيس وحديث القسيس ، ولكن فكرة روما جعلتني خجلاً إلى درجة أنى لم أقو على أن أعلن لكل هؤلاء الحاضرين أنى أنا العِرْس السميد المنشود .

وطافت بنا الكأس مرة أخرى مسرورين ، وتلطف القسيس معنا أجمعين ، حتى أصبحنا به مولعين ، ورُحْنا نوغل فى الحديث هائمين . بل إن الطلاب أنفسهم بدأوا يتناثثون سِقاط الحديث ، ويقصون مغامراتهم وهم مسافرون فى الجبال ، إلى أن أخذوا أخيراً آلاتهم وراحوا يعزفون . وتهادى النسيم العليل خلال الغصون ، وأضفت شمس المساء على الغابات والأودية المارة سريعاً بنا أطيافاً من النور الذهبى ، ورددت شِطئانُ النهر أصوات البوق ؛ وازداد مرح القسيس كلما زادت الموسيقى ، وبدأ يقص علينا نوادر لطيفة عن شبابه : كيف كان يقضى هو الآخر أوقات العطلة سائراً بين الأودية والجبال ، يرهقه الجوع والعطش ولكنه مع ذلك دائماً سعيد ، وكيف أن مدة دراسته الجامعية لم تكن إلا عطلة طويلة بين زمن المدرسة الثقيل الكالح وبين عمل الحياة الجِدّى — وهنا شرب الطلاب من جديد وبدأوا أغنية أخرى، كان رنينها يتردد حتى الجبال :

الطيور اليوم تغـــدو للجنوب ،
ويرف السَّفْــر بِشراً فى الشعاعْ .
فغدا الطلاب فى الـكون الرحيب ،
ولدى الأبواب يشـدون الوداعْ :
فوداعاً ، يا مراعى ، ووداعا ،
قد خرجنا الآن نجتاب البقاعا
وعلى البيت السلام !

فى ظلام الليــل نمشى فى القرى
ولدى الشباك قوم يفـكهون ؛
ننفخ المزمار عنـــد الباب حيرى
عطشاً ، منـــه شراباً سائلين ؛
وتأمل : إنه يُحضر خمـــرا ،
ذلك الســيدُ ، فليهنأ عمْـرا
وعلى البيت السلامْ !

هبّ فى الغابات أرْياح الشّمال
وتبللنـــا بثلجٍ ومطـــرْ
وهفا المِـعطَـفُ وانبتّ النعالْ
عندها ننشد فى هـــذا الخطرْ
رجلٌ ما أســعدا
من ببيتٍ رقدا
يتمـــلى مـــوقدا
ذائقاً خير ســـلامْ

ومع أنا لم نكن نعرف اللاتينية[١] إلا أننا رددنا ، البحارة والفتاة وأنا ، الـكلمات الأخيرة فى كل فقرة مبتهجين ، ولـكن هتافى فاق هتافهم جميعاً ، لأنى كنت ألمح حينئذ من بعيد بيت المـكوس الصغير ، وبعد قليل تبدى القصر فوق أعالى الأشجار ، متألقاً فى أشعة الشمس الغاربة .

الفصل العاشر

بلغت السفينة مرفأها ، فنزلنا مسرعين وتفرقنا فى كل اتجاه كطيور فتح قفصها فجأة . وودعنا القسيس بسرعة ، ثم غاب مهرولاً بخطوات واسعة إلى القصر . أما الطلاب فقد هرعوا إلى الأدغال النائية ، كى ينظفوا ملابسهم ويغتسلوا ويحلق كلٌّ لأخيه . وأخيراً ذهبت الخادمة ومعها كنارتُها وحزمة ملابسها تحت إبطها إلى المنزل أسفل القصر ، كى تستطيع تغيير ملابسها قبل أن تظهر فى القصر ، عنـد صاحبة النزل التى أوصيتها بها باعتبارها امرأة طيبة . ولـكن المساء الجميل أثار فى أعماق قلبي ؛ ولما غابوا عنى جميعاً ، لم أتوقف طويلا للتفـكير ، بل عدوت قدماً إلى بستان القصر .

وكان بيت المـكوس ، الذى كنت مضطراً إلى المرور به ،

---

(١) الـكلمات الأخيرة فى كل فقرة فى الأصل باللاتينية ؛ وقد عمد المؤلف إلى هذا عن قصد ، سخرية من حذلقة الطلاب المعهودة .

لا يزال على عهده فى مكانه القديم ؛ والأشجار الباسقة فى بستان القصر لا زالت فى حفيفها أعلاه ؛ والحَسُّون الذى كان يغنى دائماً أنشودته فى المساء من فوق شجرة كَسْتَنا قُبالة النافذة كان لا يزال يغنى هناك ، وكأن العالم لم يتغير فيه شيء منذ أن غادرت هذا المكان . وكانت النافذة فى بيت المكوس لا تزال مفتوحة ، فعدوت ممتلئاً سروراً وأطْلَلْت برأسى فى الغرفة . ولكن لم يكن ثمة أحد ، إنما كانت الساعة المعلقة تدق فى سكون ؛ ومنضدة الكتابة لا تزال قائمة عند النافذة ، والغليون الطويل فى أحد الأركان . فلم أملك نفسى ، بل وثبت داخل الشباك إلى الغرفة ، وجلست إلى القمطر حيث وضع دفتر الحساب الكبير . وهبط نور الشمس من خلال الأغصان ، أغصان شجرة الكَسْتَنا أمام النافذة ، أخضر ذهبياً فوق الأرقام فى الدفتر المفتوح . وغنَّى الحسون طروباً فوق الشجرة . ولكن الباب فتح فجأة ، ودخل مُحصِّل عجوز فارع القوام يرتدى مبذلتى المهلهلة ! فتوقف مذهولا عند الباب حين رآنى على نحوٍ غير متوقع ، وخلع النظارة بسرعة من أنفه ، ونظر إلى مُغْضَباً . وأنا أيضاً دهشت دهشة غير قليلة ؛ وبدون أن أتفوه بكلمة فررت من الباب الأمامى خلال الحديقة الصغيرة . ولكن قدمى اشتبكت سريعاً فى شجيرات بطاطس كان المحصل العجوز قد غرسها مكان أزهارى ، تبعاً لنصيحة الحاجب . وسمعته يقتفى أثرى خارج الباب ، وهو يلعننى ويسبنى من ورائى ؛ ولكنى كنت قد جلست فعلا على حائط القصر العالى ،

ناظراً بقلب يخفق إلى بستان القصر من تحتى .

هنا فى البستان شائع العطر والبريق والحبور لدى كل الطيور. وكانت المقاعد والمخارف خاوية ، ولكن ذرى الأشجار المموهة بالذهب تمايلت أمامى فى رياح المساء وكأنها تريد أن تحيينى ، وفى جانب من الأرض العميقة النائية تألق الدانوب بين الأشجار باسماً إلىّ من حين إلى حين .

وفجأة سمعت على بعض البُعْد صوتاً يغنى فى البستان :

خيم الصمت على عالى المَرَحْ ،
وتولى الأرضَ هَمْسٌ كالحُلُمْ .
ليس يُدْرى : إنما هذا تَرَحْ
ناعمٌ ، أو ذى عهود فى القِدمْ ؛
فتجلى الصدر نوراً وانشرحْ .

وبدا الصوت والغناء ساحرين غريبين ، وإن كانا مع هـذا معروفين أحسن معرفة ، وكأنى سمعتهما فى مكان ما مرة ما فى الحلم . فأفكرت طويلا ، طويلا ، ثم صحت مسروراً آخر الأمر وقلت : « هذا جويدو ! » وانزلقت بسرعة إلى البستان — لقد كانت هى بعينها نفس الأغنية التى أنشدها فى مساء صيفى وهو فى طُنُف نُزُل إيطالى ، حيث رأيته لآخر مرة .

استمر هو فى الغناء ؛ فتواثبتُ فوق الأزهار والسوج بحثاً عنه. فلما خرجت فى النهاية فجأة من بين آخر خمائل الورد ، وقفتُ

صلباً كالمسحور . لأنى رأيت على مقعد بجوار بحيرة البلشون ، حيث كانت الشمس الغاربة تستطع مباشرة ، أقول رأيت هناك سيدتى الحسناء جالسة على مقعد حجرى ، مرتدية ثوباً بديعاً . وفى شعرها الأسمر باقة من الورد الأحمر والأبيض ، وعيناها مُسْبَلَتان ، تلعب بسوط الركوب كما كانت تفعل تماماً يوم كنا فى الزورق وكنت أنشدها أغنية السيدة الحسناء . وتُجاهها جلست سيدة فتية [1] ، غدائرها السود المتهدلة على جيدها الأبيض ملتفتة ناحيتى ، وكانت تعزف على قيثارة ، بينا تسبح أسراب البلشون بتؤدة فى البحيرة على شكل دوائر . فرفعت سيدتى الحسناء عينيها ، وصرخت عالياً حين رأتنى ؛ والتفتَتْ السيدة الأخرى بسرعة إلى ناحيتى حتى إن غدائرها سقطت فوق وجهها ، ثم انطلقت تضحك ضحكا عالياً ووثبت من مقعدها ، وصفقت بيديها ثلاث مرات . وفى الحال خرج من خمائل الورد جمع من الفتيات ، حتى إنى لم أستطع أن أتصور أين اختفين جميعاً ؛ وكن يرتدين ملابس قصيرة بيضاء ذات بَرِيمات خضراء وحمراء ؛ وكن كذلك يحملن إكليلاً طويلاً من الأزهار بأيديهن ، وسرعان ما التفوا حولى على هيئة دائرة ، وهم يرقصون ويغنون :

بتاج البِكر أقبلنا ،

---

(١) هنا يبدأ المؤلف تفسير اللغز الأول . فهذه السيدة هى جويدو الذى لم يكن رجلا ، بل كان فتاة متنكرة فى إيطاليا ، وفى وسعنا أن نحس بهذا من قبل ، من تلك الأغنية التى غنتها فى شرفة النزل .

حريرٌ بنفسجٍ أزرقْ
برقص فاتن دُرْنا
لعُرْس رائع مُشرِق
بتاج ناضر جئنا ،
حريرٌ بنفسجٍ أزرقْ

وكانت هذه الأغنية من الرواية الغنائية « فرايشْتْس »[١] .
وبدأت أتعرف بعض المغنيات باعتبارهن فتيات صغيرات فى القرية.
فربّتُّ على خدودهن وحاولت التخلص من الدائرة ، ولكن
هذه الزهرات البديعات لم يشأن أن يدعننى حراً . ولم أستطع أن
أتبين جلية الأمر ، فوقفت هنا مشدوهاً .

---

(١) هذه الرواية الغنائية (ومعناها الحرفى : الجندى المتطوع ، ولكن المعنى هنا هو : الرامى برصاص سحرى) هى أوبرا مشهورة لكارل ماريا فون ڤيبر الموسيقار الألمانى الكبير المولود فى أويتن ، بأولدنبرج فى ١٨ ديسمبر سنة ١٧٨٦ ، وتوفى فى لندن فى ٥ يونية سنة ١٨٢٦ .
وهذه الرواية الغنائية (الأوبرا) قد سمعت لأول مرة فى برلين فى ١٨ يونية سنة ١٨٢١ . وأهمية ڤيبر فى أنه مؤسس المدرسة الرومنتيكية فى الموسيقى ، وهى المدرسة التى بلغت أوجها عند ڤجنر ، الذى يدين لڤيبر بالشىء الكثير من التأثر ، خصوصاً فى رواياته الغنائية : تنهويزر ، والهولندى الطائر ، ولوهنجرن . أما هذه الأوبرا فتمتاز خصوصاً بفاتحتها الشبيهة فى تركيبها بفاتحة تنهويزر ، والتى تعتبر وحدها رائعة موسيقية ، إذ هى تمتاز باستخدام الألحان الواردة فى صلب الأوبرا فى هذه الفاتحة عينها . وهذه الأغنية من الفصل الأول حيث يقبل الرجال والفتيات من القرية ليحيوا كيليان ، الفلاح الذى فاز فى مباراة الرماية على ماكس الذى يشتغل فى الغابات وكان الأولى أن ينتصر هو ، لأنه أكثر تمرنا على استعمال البنادق بحكم عمله .

وعلى حين غرة جاء من الأدغال شاب يلبس رداء صيد بديعاً . فلم أكد أصدق ما تراه عيناى ، لأنه كان ليـونارد المرح ! فقطعت الفتيات الصغيرات الدائرة ، ووقفن فجأة كأنهن مسحورات صامتات مرتكزات على ساق واحدة ، والأخرى مشرعة فى الهواء ، وهن ممسكات فوق رؤوسهن بأكليل الأزهار يحملنه فى أيديهن عالياً . وأخذ ليونارد يد السـيدة الحسناء التى كانت قد بقيت ساكنة صامتة لا تفعل أكثر من أنها نظرت إليه بنظرة أو نظرتين ، واقتادها إلى قائلا :

« الحب — وهذا شىء أجمع عليه الراسخون فى العلم — صفة من أشجع صفات القلب الإنسانى ، إنه يحطم كل حصون الجاه والمنزلة والطبقة بنظرة واحدة شامخة : والـكون بالنسبة إليه صغير كل الصغر ، والأبدية قصيرة كل القصر . أجل ، إنه بُرْدةُ الشاعر التى يتلفع بها كل نبىٍّ مرةً فى هذا العالم البارد ، حين يبدأ مسيره إلى أركاديا . وكلما اتسعت شـقة البعد بين قلبين عاشقين اتسع المنحنى الذى فيه تحرك الرياح المسافرة البردة المتألقة من ورائهم ، واتسعت ثنيّـات البردة بجـرأة وإدهاش ، ويطول الرداء خلف العاشقين باستمرار ، إلى درجة أن الآخرين لا يستطيعون التحرك دون الوقوع فى هـذه الذيول من غير أن يكونوا متوقعين . أوه ، سيدى الأعز ! يا أيها المحصل والعِـرْس ، على الرغم من أنك سافرت بهذه البردة بعيداً حتى مدينة التّـمره (روما) ، إلا أن اليد اللطيفة لعروسك المستقبلة متشبثة بنهاية

الذيل ؛ وعلى الرغم من أنك طَوّفت وعزفت بالكمان وهَرّجت ، فقد كان عليك مع ذلك أن تعود إلى السحر الصامت لعينيها العاشقتين . والآن ، ما دام قد حدث ما حدث ، أيها العاشقان المجنونان العزيزان ! اشتملا بالبردة المقدسة ، حتى يختنق العالم حواليكما ؛ وليحب كلٌ منكما الآخر كالأرانب الصغيرة ، وكونا سعيدين ! »

ولم يكد ليونارد ينتهى من موعظته حتى أقبلت السيدة الفتية الأخرى ، تلك التى كانت تغنى ، أقبلت علىّ ووضعت إكليلا من الآس على رأسى ، وهى تغنى بدلال ومكر أثناء وضعها الإكليل فى شعرى بإحكام ، وتقرّب وجهها اللطيف من وجهى :

غرامى هامَ فى نفسكْ
وهذا وجهُك ازدانا ،
لأن السهم من قوسكْ
أصاب القلبَ أحيانا

ثم ارتدت إلى الوراء خطوة أو خطوتين ، وسألتنى بانحناءة وهى تنظر إلى مبتهجة حتى تواثب قلبى : « هل لا تزال تذكر هؤلاء اللصوص الذين أزعجوك وأنت على الشجرة فى تلك الليلة ؟ » وقبل أن تنتظر جوابى دارت من حولى وقالت : نعم أنت بعينك ، لم تصبغ بصبغة غريبة ! ولكن ، لا ، أنظرى إلى هذه الحبوب السمينة ، هكذا صاحت فجأة لسيدتى الحسناء : « كمان ، ملابس ، مَسَاوى ، أدوات سفر ، كلها مختلطة أشنع اختلاط ! » وأدارتنى

باستمرار ، ولم تملك نفسها من الضحك . أما السيدة الحسناء فقد وقفت ساكنة صامتة ، لم تجسر على رفع عينيها ، خجلاً وخزاية . وخيل إلىّ أنها كانت فى سرها مغضبة من كل هذا الهذر والعبث . وفجأة بدأت الدموع تنهمر من عينيها ؛ وأخفت وجهها فى صدر السيدة الأخرى التى نظرت إليها أولاً مشدوهة ثم عانقتها بحرارة .

غير أنى وقفت أقطر دهشة ، لأنى كلما نظرت إلى السيدة الغريبة ، اتضح لى أنها ليست إلا الرسام الشاب جويدو .

فلم أدر ماذا أصنع ، وكنت على وشك إلقاء أسئلة حين ذهب إليها ليونارد وهمس فى أذنها شيئاً . سمعته يسألها : « أو لا يعرف بعدُ ؟ » فأنغضتْ رأسها . ففكر لحظة ثم قال أخيراً : « لا ، لا ، لا بد أن يعلم كل شىء فى الحال ، وإلا أثيرت الإشاعات ، وكثر القيل والقال » .

فالتفت إلىّ ، ثم قال : « أيها المحصّل ! ليس لدينا متسع من الوقت . ولكن تفضل بالتخلص من كل اندهاشاتك فى الحال ، كيلا تثير بعد حكاية قديمة بين الناس ، وتسبب كثيراً من التخييلات والاختراعات بأسئلتك واندهاشك ، وإنغاضك رأسك » . ثم اقتادنى إلى الخمائل بينما كانت السيدة الفتية تلعب بسوط حسنائى فى الهواء وتحرك غدائرها على وجهها لإخفائه ، وعلى الرغم من هذا استطعت أن أرى حمرة خجل عميقة ترتفع إلى جبينها .

«والآن» ، هكذا قال ليونارد ، «إن الآنسة فلورا التى تدّعى

هنا بأنها لا تعلم شيئاً، ولم تسمع شيئاً عن القصة كلها، قد استبدلت بسرعة جداً قلبها مع أحد الناس . ثم أتى آخر ووضع قلبه تحت قدميها على صوت الطبل والبوق ، وسألها قلبها مبادلة . ولكن واحداً كان يملك قلبها ، وهى تملك قلبه ، وهذا الشخص لا يريد أن يسترد قلبه ولا أن يرد قلبها » . فصاح الكل : « ولكن لعلك لم تقرأ قصة من القصص ؟ » فأجبت أنى لم أقرأ شيئاً . فقال : « إذن ، لقد شاركت فى وضع واحدة . وبإيجاز لقد كان هناك خلط شديد بين هذه القلوب ، حتى إن واحداً من الناس — وهو أنا — كان عليه أن يجد مخرجاً من هذا المأزق . وفى ذات ليلة صيفية ركبت جوادى ، ووضعت الآنسة فلورا — باسم الرسام جويدو — على جواد آخر ، وركبنا ، منتحين ناحية الجنوب ، حيث حاولت أن أخفيها فى أحد قصورى المنعزلة بإيطاليا ، إلى أن انتهى الخلط بين القلوب . ولكن اقتفى شخص أثرنا ونحن فى الطريق ، ومن شرفة ذلك النُّزل الغريب الذى نمت نيه بكل هدوء إبان سهرك ، لمحت فلورا من يقتفى أثرنا». فقلت : « ها ، ها ، القزم الأحدب ؟ » فتابع هو حديثه قائلا : « لقد كان جاسوساً . فانحزنا خفية إلى الغابات ، وتركناك تسافر وحدك فى عربة السفر . نخدع هذا من يتتبعنا ، بل وخدع رجالى فى القصر ، الذى كانوا ينتظرون فى كل ساعة مجىء فلورا وهى متنكرة ، وبحماسة يعوزها التروى ظنوك الآنسة . بل إن الناس هنا فى القصر قد ظنوا أن فلورا هناك ؛ فقاموا بالبحث والتفتيش

— وكتبوا إليها — هل تسلمت الخطاب ؟ » فلما سمعت هذه الـكلمات انتزعت الخطاب من جيبي وقلت : « هذا الخطاب ؟ » « إنه خطابي » ، هكذا قالت الآنسة فلورا التي بدت كأنها لم تتنبه إلى حديثنا ، وجذبت الخطاب من يدى ، وقرأته بسرعة ، ثم أدخلته فى دُرّاعتها . فقال ليونارد : « والآن ، يجب أن نذهب بسرعة إلى القصر حيث ينتظروننا أجمعين . ولـكى ننتهى ، وكما يليق طبيعيا بكل قصة محكمة السبك : اكتشاف ، أسف ، مصالحة ، ها نحن من جديد سعداء ، وغدا الزفاف ! » .

وبينا كان لا يزال يتكلم ، أتت ضوضاء سريعة من الخمائل : طبول وأبواق ، شَبّور ومُتردّدة[1] ، قانون ، حملت كلها وسط عاصفة من التهليل ، وبدأت البنات ترقص ، ومن كل خميلة تبدت وجوه كأنها نمَت على الأغصان . فوثبت عاليا فى الهواء ، ومن ناحية إلى أخرى ؛ ولـكن لما كان الظلام قد خيّم ، فإنى لم أتعرف إلا الوجوه القديمة وببطء . فالبستانى العجوز يضرب الطبل ، والطلبة من براغ ، مشتملين بمعاطفهم ، يعرفون موسيقى بين ضربات الطبل ، وإلى جانبهم كان الحاجب ينفخ الزّمّر وكأنه

---

(١) الشبور بوق من القرن ، ويتكون من أنبوبة مستديرة . أما المترددة (الترومبون) فهى آلة نحاسية للنفخ ذات أنبوبة متحركة تنزلق فى أنبوبة ثابتة ، تسمح ، بالقصر أو الاستطالة ، وبواسطة حركة من الأيمن ، أن ترفع أو تخفض سُلم الآلة . وله أنواع ثلاثة : المترددة الرنانة ، والمترددة الصادحة ، والمترددة الجهير .

مجنون . فلما رأيته هناك دون توقع ، عدوت إليه وعانقته بحرارة . فأخرجه هذا عن طوره تماما ، وصاح فى الطلاب ؛ قائلا : « أجل ، حتى ولو كان قد ارتحل إلى آخر الأرض ، إنه لا يزال كما هو : مجنونا ! » ، واستمر ينفخ بكل حدة .

وفى تلك الأثناء كانت سيدتى الحسناء قد فرّت من الخليط والضجيج ، وكانت تطير بعيداً فى البستان كالظبى المذعور . ورأيتها فى الوقت المناسب ، فهرعت أعدو خلفها . ولكن الموسيقيين قد حالت نشوة الحماسة بينهم وبين ملاحظة هذا ، وظنوا من بعد أننا قد ذهبنا إلى القصر ، وسار جمعهم بموسيقاهم وضوضائهم العالية .

ولكنا وصلنا سويا إلى صُفّة فى البستان ، فتحت نوافذها على مصراعيها مطلة على وادى فسيح . وكانت الشمس قد غابت من زمن وراء الجبال ، اللهم إلا بريقاً ذهبياً بقى متألقاً فى الشفق الحار ، وبدأ رنين الدانوب يتضح شيئاً فشيئاً كلما زاد سكون المساء . فأمعنت النظر فى الكونتيسة الحسناء التى وقفت إلى جوارى مباشرة حتى كنت أسمع بوضوح خفقان قلبها ، وكانت لا تزال دافئة من أثر الجرى . ولكن الآن وقد صرت معها وحيداً ، انعقد لسانى احتراماً وإجلالا . وأخيراً ، تشجعت وأخذت يدها اللطيفة الناصعة — وهنا اجتذبتنى إليها وطوقت عنقى بذراعيها ؛ وأمسكتها أنا بقوة بين ذراعى .

غير أنها تخلصت بسرعة من بينهما ، وذهبت خجلة يعلوها

الخفر إلى النافذة كى تبرد خدودها الملتهبة فى برد المساء . فصحت :
« آه ! إن قلبي على وشك أن يتمزق من السعادة ، ولـكنني
لا أستطيع أن أفهم الأمر كله ، إنه لا يزال يبدو لى حلماً ! »
فقالت السيدة الحسناء : « ولى أيضاً » . وأضافت بعد مدة : « فى
الصيف الماضى ، حين عدتُ من روما مع الـكونتيسة ، بعد أن
وجدنا الآنسة فلورا لحسن الحظ ورجعنا بها عائدين — ولـكننا لم
نسمع خبراً عنك — لم أكن أظن أن الأمور ستجرى على هذا
النحو ! وحتى هذا الصباح ، إلى أن جاء الحوذى ، هذا الغلام
الأحْـوَذى العزيز ، وهو يلهث مبهور الأنفاس كى يخبرنا أنك آت
إلينا فى زورق السفر » . ثم ضحكت بهدوء إلى نفسها ، وسألت :
« هل تذكرت المرة الأخيرة التى رأيتنى فيها ، فى الشرفة ؟ »
وقد كان ذلك فى مساء جميل كهذا المساء ، والموسيقى تصدح فى
البستان» ؛ فسألتها بسرعة : «من إذن الذى مات ؟ » «مات ؟» ،
هكذا قالت الحسناء ، ونظرت إلىّ مشدوهة . فأجبت : « إنه
زوج عصمتك الذى كان معكِ فى الشرفة » . فعلتها حمرة الخجل
وصاحت : « أى أفـكار غريبة حشوت بها رأسك ! لقد كان
ذلك ابن الـكونتيسة عائداً من أسفاره ، ولـما كان ذلك فى يوم
عيد ميلادى ، فقد اقتادنى إلى الشرفة كى أتقبل تحيته أنا الأخرى .
أظن أن هذا كان السبب إذن فى فرارك ؟ « آه ، إلـهى ، نعم ! » ،
هكذا صحت وضربت بيدى على رأسى . ولـكنها اكتفت بهز
رأسها والضحك بسرور .

وكنت سعيداً أن تكون هكذا إلى جوارى تتحدث إلى بهذا المرح والود والألفة ، وكان فى وسعى أن أستمع إليها حتى مطلع الفجر . فأخذت ملء يدى من اللوز الذى أحضرته معى من إيطاليا فى جيبى . فأخذت بعضا منه ، وفرقناه ، ونظرنا سعداء إلى الريف الممتد ساجيا أمامنا . ثم قالت بعد فترة : « أولا ترى ذلك القصر الأبيض الصغير هنـاك ، المتألق فى ضوء القمر ؟ إن الـكونت قد وهبنا إياه ، ببستانه وعرائش كرومه . وسنعيش هناك . لقد عرف من زمان أننا عاشقان ، وكان كثير الغبطة بك ، لأنه لو لم تكن أنت هناك حين فر بالسيدة الشابة ، لـكانا قد قبض عليهما قبل أن يصالح الـكونتيسة ، وحينئذ سيكون كل شىء قد تغير تمام التغيير . فصحت : « آلهى ، أيتها الـكونتيسة الجميلة الرائعة ، إننى لا أعلم إذا كنت واقفا على رأسى أو على أقدامى من أثر هذه الأخبار التى لم أكن أتوقعها مطلقا ؛ لقد كان إذن ليونارد ؟ » فقاطعتنى قائلة : « نعم ، نعم ، على الأقل هذا هو الاسم الذى تسمى به فى إيطاليا . إن الإقطاعية الماثلة هناك من أملاكه ، وها هو قد جاء للزواج بفلورا المحبوبة ، ابنة كونتيستنا . ولـكن لماذا تدعونى دائما بلقب كونتيسة ؟ » . فحملقت فى وجهها . فقالت : « إنى لست كونتيسة ؛ إن سيدتنا الرحيمة قد أخذتنى لديها فى القصر حين أتى بى عمى ، الحاجب ، إلى هنا ، طفلة صغيرة ، ويتيمة مسكينة » .

فنزل عن قلبي حمل ثقيل عندما سمعت هذه الكلمات[١] .
وصحت نشوان : « بارك الله فى الحاجب ، لأنه عمك ! لقد كنت دائماً أُجِله وأحسن به الظن » . فأجابت : « وهو أيضا يحسن بك الظن ؛ ولكن آه لو كنت أكثر لطفا ورقة ، هكذا يقول دائما . وعليك الآن أن ترتدى ملابس أنيقة » . فصحتُ مسرورا : « أوه ! سترة الصباح ، وقبعة من القش ، وسراويل واسعة فضفاضة ، ومِهْمازات ! وبعد الزفاف مباشرة نذهب إلى إيطاليا ، إلى روما ، حيث ترقص النافورات الرائعة ، وسنأخذ الطلاب والحاجب ! » فضحكتْ آمنة السرب ، ونظرت إلى بسرور وسعادة وحنان ، بينا الموسيقى لا تزال تصدح من بعيد ، والسهام النارية تنطلق من القصر فوق البستان الساجى ، ورنين الدانوب الزاخر يتهادى إلينا — وكل شىء كان على ما يرام !

---

(١) ارتاح الفتى من عبء ثقيل إذ علم أن محبوبته ليست كونتيسة (مما يجعله عبداً خاضعاً لها) ، ولكنها من طبقته ، وهذا يكفل له حريته التى يحرص عليها كل الحرص .

يوسف كارل بندكت فون أيشندورف

لوحة حيـــاته

١٧٨٨ : ولد يوسف كارل فون أيشندورف فى قصر لوبوڤتس Lubowitz فى ١٠ مارس سـنة ١٨٨٨ من أسرة نبيلة عريقة استقرت فى سيليزيا منذ القرن السابع عشر .

وقضى طفولته مع أخيه ڤلهلم فى ممتلـكات آبائهما فى جو شعرى كهذا الذى خلقه فى شعره نجيته ونوفانس وتيك .

١٨٠٦ — ١٨١٥ : درس فى جامعة هـَـلّه Halle على يد ستيفنز Steffens وجيرّس Görres ، وهنا عاش سـوياً فى « أحلامه » مع أوتو هينرش فون ليبن Otto Heinrich von Loeben .

وبعد إقامة قصيرة فى باريس وبرلين ، عكف على دراسـته القانونية فأتمها فى جامعة ڤينا ؛ وفى تلك الأثناء اتصل بفريدرش ودوروتيه اشليجل .

وفى أثناء حرب التحرير ضد نابليون اشترك متطوعاً فى فرقة « الـكتائب السود » برئاسة لتسوف Lützow .

١٨١٦ — ١٨٥٧ : بعد أن أصيبت أسرته فى ثروتها من جراء الحروب البروسية النابليونية ، اضطر أيشندورف إلى الدخول

فى سلك المناصب الحكومية سنة ١٨١٦ ، فدخل فى خدمة الحكومة البروسية أولا فى برسلاو ثم دنتسج ثم كينجسبرج ، ثم فى برلين سنة ١٨٣١ ، حيث أصبح مستشاراً حكومياً فى وزارة المعارف فى قسم الشئون الكاثوليكية .

وفى سنة ١٨٤٤ أحيل إلى المعاش ، فقضى بعضاً من السنين فى دنتسج فى قصر أسرته ثم فى ڤينا ، وأخيراً استقر فى سنة ١٨٥٥ فى مدينة نَيْسه Neisse (فى سيليزيا العليا على فرع الأودر) حيث أقيم له فيها فيما بعد تمثال فى سنة ١٨٨٨ .

١٨٥٧ : توفى فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٥٧ بمدينة نيسه .

مؤلفـــــــاته

القصص الطويل : « الاستشعار والحضور » سنة ١٨١٥ *Ahnung und Gegenwart* ، وفيها تعبير شعرى مختلط عن الحنين الرومنتيكى فى تقلبه بين الواقع والخيال وشعوره بالقلق وشقاء الضمير ؛ وهى من تلك التقليدات التى حاول بها الرومنتيك محاكاة « ڤلهلم ميستر » لجيته ؛ ويغلب عليها الطابع الفنى ، ولكن يعوزها بعض الذوق . وقد نشرت فى البدء باسم مستعار ، نشرها فوكيه فى ثلاثة أجزاء سنة ١٨١٥ .

راجع فيما يتعلق بها كتاب هـ . ڤيجنر « الاستشعار والحضور لأيشندورف » H. Wegener : *Eichendorffs Ahn. u. Gegenwart* . ولكنها تؤذن مع ذلك بانتقال من المثالية

اللامحسوسة عند الرومنتيك إلى نوع من الواقعيـة الشعرية والأخلاقيـة . يضاف إليها « روبرت وجسكارد » سنة ١٨٣٣ *Robert und Guiscard* و « جوليان » سـنة ١٨٥٣ *Julian* و « لوكيوس » سنة ١٨٥٧ *Lucius* .

القصص القصيرة : « الصورة الرمرية » سـنة ١٨١٩ *Das Marmorbild* ؛ وهى من نوع الأقاصيص الأسطورية التى برع فيها تيك ؛ « من حياة حائر بائر » سنة ١٨٢٦ *Aus dem Leben eines Taugenichts* وهى التى نقـدم ترجمتها هنا ؛ « الشاعر ورفاقه » سـنة ١٨٣٤ *Der Dichter und ihre Gesellen* ؛ و « قصر دیرنده » سنة ١٨٣٧ *Schloss Dürande* . وفى هذه الأقاصيص أولج أيشندورف أجمل قصائده الغنائية .

المسرحيات : المآسى : « اتسلين فون رومانو » سنة ١٨٢٨ *Ezelin von Romano* ؛ « بطل ماريبورج الأخير » سنة ١٨٢٨ *Der letzte Held von Marienburg* .

الملاهى : « سعادة ماريبت ونهايته » سـنة ١٨٢٨ *Meyerbeths Glück und Ende* ؛ « قتالاً للمتفيقهين » سنة ١٨٢٨ *Krieg den Philistern* ؛ « المحرَّرون » سنة ١٨٣٣ *Die Freier* .

ويمتاز مسرح أيشندورف بأنه رومنتيكى فى صورته المتحللة المليئة بالموسيقى والغناء ؛ كما تشيع فيه روح دينية شعرية ؛ ولذا كان قليل القيمة بالنسبة إلى أقاصيصه أو قصائده الغنائيـة .

وملاهيه خير من مآسيه ، لأنه استطاع بقدرته على السخرية أن يرتفع إلى مستوى راقٍ أحياناً فى الملاهى ؛ وفيها أيضاً يبدو تلميذاً مخلصاً لتيك ، إذ فيها تشيع الروح الأرستوفانية الساخرة المألوفة لدى تيك .

وله إلى جانب هذه المؤلفات ترجمات لمسرح كالدرون ، المؤلف المسرحى الأسبانى المشهور ، بعنوان « مسرحيات روحانية لكلدرون » فى جزئين سنة ١٨٤٦ — ١٨٥٣ *Geistliche Schauspiele von Calderon* .

مؤلفاته النقدية : المؤلفات السياسية : « ضوضاء بلا غناء » سنة ١٨٣٢ *Viel Lärmen um Nichts* ؛ و « أنا أيضاً كنت فى أركاديا » ؛ « الحرية ومحرّروها » . ومذهبه فى السياسة هو مذهب الرومنتيك ، ألا وهو أن السياسة هى فن محاولة تحقيق مملكة الله على الأرض .

مؤلفاته الأدبيــة : « حول الأهمية الأخلاقيه والدينية للشعر الرومنتيكى الجديد فى ألمانيا سنة ١٨٤٧ » *Ueber die ethische und religiöse Bedeutung der neueren romantischen Poesie in D.* ؛ « القصة الألمــانية فى القرن الثامن عشر فى صلتها بالمسيحية » سنة ١٨٥١ *Der deutsche Roman* ؛ « فى تاريخ المسرحية» سنة١٨٥٤ *Zur Geschichte des Dramas* ؛ « تاريخ الأدب الشعرى فى ألمــانيا » سنة ١٨٥٧ *Gesch. d. poet. Lit. Ds.* . وفى هــذه المؤلفات يكشف عن نظريته فى

الشعر باعتباره إلهاماً بالسر الإلهى ؛ كما يشيد بالنزعة الكاثوليكية باعتبارها ينبوع الشعر الحديث ، والقوة الجديدة الوحيدة للإلهام الخلّاق .

نشرات

نشرت مؤلفاته إبان حياته بعنوان : « مؤلفات » *Werke* فى ٤ أجزاء ، ليپتسج سنة ١٨٤١ . والآن تنشر له طبعة كاملة نقدية فى ٢٥ مجلداً بإشراف ف . كوش W. Kosch ، راتسبون ، ظهر الجزء الأول منها سنة ١٩٠٨ ؛ والجزء الثانى والعشرون يحتوى على مراجع وافية عن أيشندورف كتبه ك . فون أيشندورف . أما الطبعات المختارة فعديدة أهمها : ليپتسج ، سنة ١٩٠٧ فى ٤ أجزاء بإشراف ر . جوتشل R. Gottschall ؛ برلين سنة ١٩٠٨ بإشراف ل . كريهه L. Krähe ؛ وليپتسج سنة ١٩١٠ ، بإشراف ف . شولتس F. Schultz ؛ وليپتسج سنة ١٩٢٣ ، فى ٦ أجزاء بإشراف ل . ﻫ . ڤيجنر L. H. Wegener .

وراجع كدراسات عن أيشندورف :

1) H. v. Eichendorff: *J. v. E., sein Leben und seine Schriften*, 3. Aufl. Leipzig, 1923.

2) H. Brandenburg: *J. v. E., sein Leben und sein Werk*, München, 1922.

3) R. Jakubczyk: *E. s. Weltbild*, Habelschwerdt, 1923.

5) J. Nadler: *E. s Lyrik*, Prag, 1908.

5) E. Reinhard : *Eichendorff-Studien,* Münster, 1908.

6) K. v. Eichendorff : *Ein Jahrhundert Eichendorff-Literatur, 1927.* وفى هذا الكتاب ذكر وافٍ لكل المراجع .

وقد أنشئت فى سنة ١٩١٣ « جمعية أيشندورف » Eichendorff-Gesellschaft فى مدينة جليفتس Gleiwitz . وفى سنة ١٩١٨ أُنشىء فى مُنْشِن « رابطة أيشندورف » Eichendorff-Bund وهى تصدر مجلة خاصة بعنوان « الساهر » Der Wächter ، كما تصدر سنويا « تقويم أيشندورف » Eichendorff-Kalender .

منهاجنا فى الترجمة

تقيدنا بالنص الألمانى قدر المستطاع ؛ فلم نستبح لأنفسنا أى تصرفٍ إلا فيما يقتضيه جمال الأسلوب . والشعر ترجمناه منظوماً فى أوزان عربية أقرب ما يكون إلى الأوزان الألمانية الأصلية ، محاولين إلى جانب هذا أن تكون صالحة للغناء كما قصد إليها فى الأصل أيضاً . أما القوافى فقد سرنا فى التزاماتها كما فعل المؤلف ، وإن كان فى ذلك أحياناً افتراق عما أُلِف عادة فى القوافى العربية ؛ ولكنه تجديد فى التزام القافية يجمل بنا أن نأخذ به كى نقترب كثيراً من الشعر الأوربى لما فى ذلك من تحرر وزيادة فى القدرة على التعبير نظما فى فنون من الأدب من العسير جداً أن يعبر فيها نظما لو التزمنا القيود االتقليدية .

الروائع المـائة

العشر الأولى :

١ — أيشندورف : من حياة حائر بائر (ظهر)

٢ — فوكيه : أُنْدين (ظهر)

٣ ، ٤ — جيتـه : الديوان الشرقى للمؤلف الغربى (ظهرا)

٥ — هيلدرلن : هيپريون

٦ — بَيْرُن : تشيلد هارولد

٧ — شوپنهور : حكمة الحياة

٨ — نيتشـه : الفجـر

٩ — جيتـه : الأنساب المختارة

١٠ — جيتـه : المسرحيات

خلاصة الفكر الأوربى

ظهر منها :

١ — نيتشه

٢ — اشپنجلر

٣ — شوپنهور

٤ — ربيع الف

٥ — أفلاطون

٦ — أرسطو

٧ — خريف الفكر اليونانى

